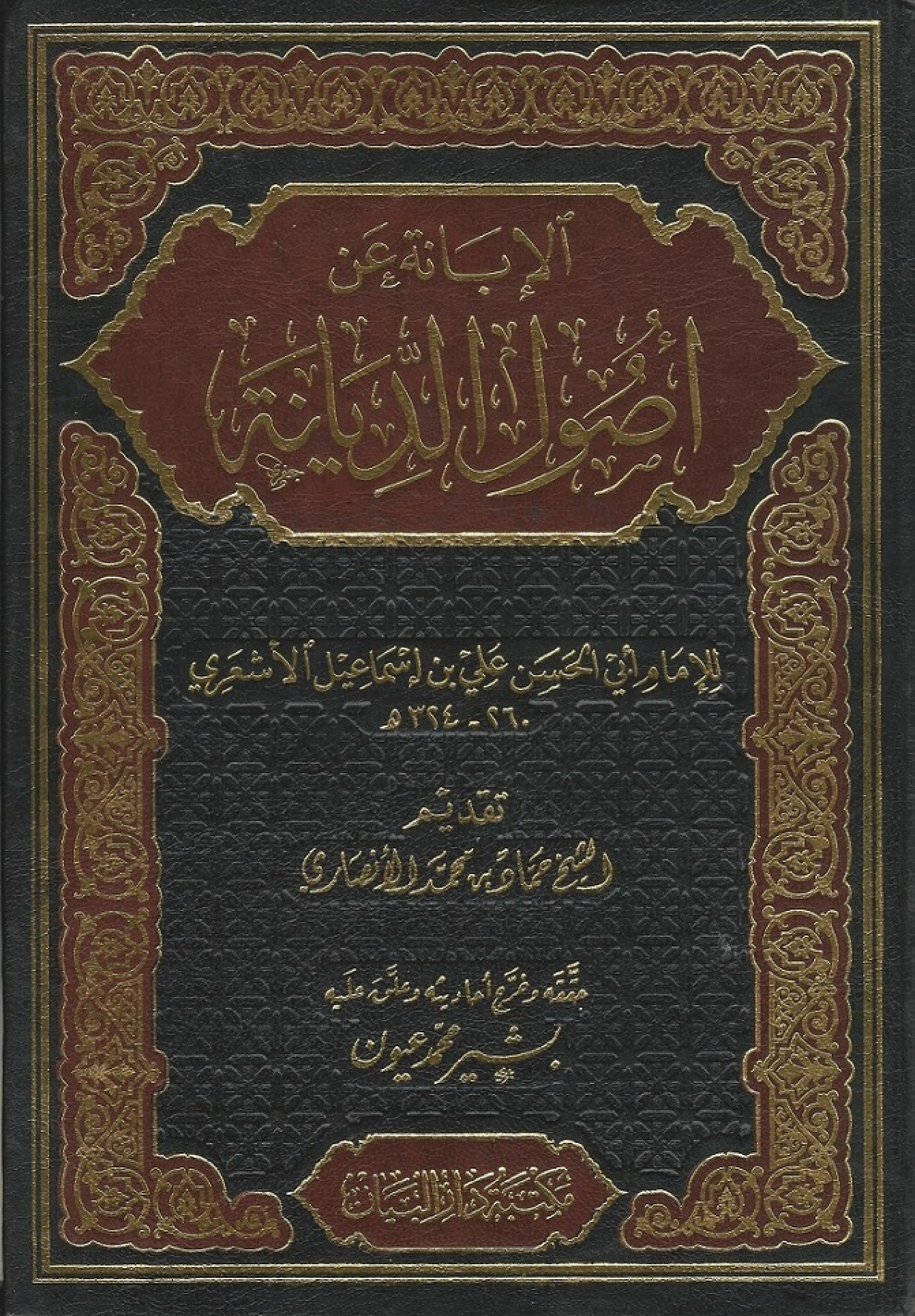

الإبانة عن
أصول الديانة
للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري
٢٦٠ - ٣٢٤ هـ
تقديم
الشيخ حماد بن محمد الأنصاري
حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
بشير محمد عيون
مكتبة دار البيان

الإبانة عن أصول الديانة

للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري

٢٦٠ هـ - ٣٢٤ هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
بشير محمد عيون

طبعة مزيدة ومنقحة

مكتبة دار البيان
ص.ب ٢٨٥٤ - هاتف ٢٢٩٠٤٥
دمشق - الجمهورية العربية السورية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .

أما بعد : فهذه هي « الطبعة الثالثة » من كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » لإمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى ، وهو من أصول كتب العقائد عند أهل السنة حيث اقتفى مؤلفه آثار الإمام أحمد بن حنبل ناصر السنة وغيره من علماء السلف رضوان الله عليهم أجمعين .

هذا وقد صدرت الطبعة الأولى بتحقيقنا ، وقد مضى عليها عشر سنوات، ثم صدرت الطبعة الثانية بمطابع الجامعة الإسلامية في مدينة رسول الله ﷺ وقد تفضل العلامة الفاضل الشيخ حماد الأنصاري حفظه الله تعالى بكتابة مقدمة نافعة جليلة للكتاب زادت من قيمته ورفعت من قدره .

ثم تأتي طبعتنا هذه تمتاز عما سبقها بالآتي :

١ - عدنا فقابلنا الكتاب على الطبعة الهندية والمنيرية وعلى طبعة الدكتور فوقية محمود ، وكتاب « تبيين كذب المفتري » لابن عساكر ، واخترنا ما رأيناه أنه أصح وأشرنا إلى اختلاف النسخ في الحواشي إلا ما كان خطأ بيناً لا خفاء فيه فلم نشر إليه .

٢ - استوفينا تخريج الأحاديث كاملة مفصلة .

٣ - علقنا على بعض المواضع التي تحتاج إلى تعليق وخاصة ما نسبه الأشعري إلى أبي حنيفة رحمهما الله تعالى من القول بخلق القرآن وأنه تاب من ذلك ، وبيان أن القائل بذلك هو حماد بن أبي حنيفة ، وأنه نسب قوله إلى أبيه ظلماً وبهتاناً . وأحلنا القارئ في كثير من المواضع إلى «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة ابن أبي العز ليستكمل أطراف الكلام عن مواضيع الكتاب .

٤ - صدرنا هذه الطبعة بمقدمة الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله تعالى شاكرين له فضله وعلمه ، والله يتولى جزاءه خير الجزاء .

٥ - وضعنا للكتاب فهارس لأطراف الحديث ، وآخر للأعلام ، وثالث للمواضيع .

ونرجو أن نكون بعملنا قد اقتربنا من الكمال ـ والكمال لله وحده ـ وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت والله يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

دمشق ١٤١٠/١١/١٣

الراجي من الله العون
بشير محمد عيون

مقدمة الطبعة الثانية

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

لفضيلة الشيخ حماد بن محمد الأنصاري

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : لما كان أكثر الناس في الأقطار الإسلامية ينتسب عقيدة إلى أبي الحسن الأشعري ، ومع ذلك لا يعرف شيئاً عن أبي الحسن الأشعري ، ولا عن عقيدته التي استقر عليها أمره أخيراً ، واستحق بها أن يكون من الأئمة المقتدى بهم . أحببنا أن نفيد أولئك عن حقائق هذا الإمام المجهول عند كثير ممن ينتسب إليه وينتحل عقيدته ، حسب ما تتبعنا من المراجع المعتبرة .

وقبل كل شيء أتحف القارئ بنبذة قليلة من ترجمة الأشعري فأقول وبالله أستعين :

التعريف بالإمام أبو الحسن الأشعري :

هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي

بردة بن أبي موسى الأشعري ، ولد سنة ستين ومئتين من الهجرة النبوية ، ترجم له أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في كتابه « تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري » ، والخطيب البغدادي في « تاريخ الإسلام » ، وابن خلكان في « وفيات الأعيان » ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » ، وابن كثير في « البداية والنهاية » ، « وطبقات الشافعية » والتاج السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » وابن فرحون المالكي في « الديباج المذهب في أعيان المذهب » ، ومرتضى الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » ، وابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب في أعيان من ذهب » وغيرهم .

دخل هذا الإمام بغداد وأخذ الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي ، أحد أئمة الحديث والفقه ، وعن أبي خليفة الجمحي وسهل بن سرح ومحمد بن يعقوب المقري وعبد الرحمن بن خلف البصريين ، وروى عنهم كثيراً في تفسيره « المختزن » ، وأخذ علم الكلام عن شيخه زوج أمه أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة .

ولما تبحر في كلام الاعتزال وبلغ فيه الغاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد فيها جواباً شافياً فتحير في ذلك .

فحكى عنه أنه قال : وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم، ونمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر ، فقال لي رسول الله : « عليك بسنتي » فانتبهت !! وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار ، فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهرياً .

قال أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعرف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ في الجزء الحادي عشر من تاريخه المشهور صفحة ٣٤٦ : « أبو

الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة .

إلى أن قال : وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم » .

قال ابن فرحون في الديباج : « أثنى على أبي الحسن الأشعري أبو محمد بن أبي زيد القيراوني وغيره من أئمة المسلمين » . اهـ .

وقال ابن العماد الحنبلي في « الشذرات » الجزء الثاني صفحة ٣٠٣ « ومما بيض به أبو الحسن الأشعري وجوه أهل السنة النبوية وسود به رايات أهل الاعتزال والجهمية ، فأبان به وجه الحق الأبلج ، ولصدور أهل الإيمان والعرفان أثلج ، مناظرته مع شيخه الجبائي التي قصم ظهر كل مبتدع مرائي وهي أعني المناظرة كما قال ابن خلكان : « سأل أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي على ثلاثة أخوة ، كان أحدهم مؤمناً براً تقياً . والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً ، والثالث كان صغيراً ، فماتوا فكيف حالهم ؟ فقال الجبائي : أما الزاهد ففي الدرجات ، وأما الكافر ففي الدركات ، وأما الصغير فمن أهل السلامة . فقال الأشعري : إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له ؟ فقال الجبائي : لا !! لأنه يقال له : أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات ، فقال الأشعري : فإن قال ذلك التقصير ليس مني ، فإنك ما أبقيتني ما أقدرتني على الطاعة ، فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا : كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقاً للعذاب الأليم فراعيت مصلحتك ، فقال الأشعري : فلو قال الأخ الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي ، فلم راعيت مصلحته دوني فانقطع الجبائي !! .

وقال ابن العماد : « وفي هذه المناظرة دلالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته واختص آخر بعذابه » . اهـ .

وقال تاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » : أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل وعقيدته عقيدة الإمام أحمد رحمه الله واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب ، وبه صرح الأشعري في تصانيفه وذكره غير ما مرة من أن عقيدتي هي عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل ، هذه عبارة الشيخ أبي الحسن في غير موضع من كلامه » . اهـ .

وفضائل أبي الحسن الأشعري ومناقبه أكثر من أن يمكن حصرها في هذه العجالة ، ومن وقف على تواليفه بعد توبته من الاعتزال رأى أن الله تعالى قد أمده بمواد توفيقه ، وأقامه لنصرة الحق والذب عن طريقه .

وقد تنازع فيه أهل المذاهب ، فالمالكي يدعي أنه مالكي ، والشافعي يزعم أنه شافعي ، والحنفي كذلك . قال ابن عساكر : لقيت الشيخ الفاضل رافعاً الحمال الفقيه ، فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن الأشعري كان مالكياً فنسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري لكثرة تواليفه وكثرة قراءة الناس لها .

قال ابن فورك : توفي أبو السحن الأشعري سنة ٣٢٤ هـ . اهـ .

وبعد ذكر هذه النتفة من ترجمة هذا الإمام نذكر ما يلي إثبات رجوعه عن الاعتزال ، وإثبات نسبة الإبانة إليه ، ننقل ذلك من المراجع الموثوق بها ، فنقول وبالله التوفيق .

رجوع أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى عقيدة السلف

قال الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ هـ في كتابه « التبيين » قال أبو بكر إسماعيل بن أبي محمد بن إسحاق الآزدي القيرواني المعروف بابن عزرة : إن أبا الحسن الأشعري كان معتزلياً وأنه أقام على مذهب الاعتزال أربعين سنة ، وكان لهم

إماماً ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع بالبصرة فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة ، وقال : معاشر الناس إني تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده ، كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها كتاب « اللمع » وغيره من تواليفه الآتي ذكر بعضها قريباً إن شاء الله : فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه فصار عند المعتزلة ككتابي أسلم وأظهر عوار ما تركه فهو أعدى إلى الخلق أهل الذمة .

وكذلك أبو الحسن الأشعري أعدى الخلق إلى المعتزلة ، فهم يشنعون عليه وينسبون إليه الأباطيل ، وليس طول مقام أبي الحسن الأشعري على مذهب المعتزلة ، مما يفضي به إلى انحطاط المنزلة ، بل يقضي له في معرفة الأصول بعلو المرتبة ، ويدل عند ذوي البصائر له على سمو المنقبة ، لأن من رجع عن مذهب كان بعواره أخير ، وعلى رد شبه أهله وكشف تمويهاتم أقدر ، وبتبيين ما يلبسون به لمن يهتدي باستبصاره أبصر ، فاستراحة من يعيره بذلك كاستراحة مناظر هارون بن موسى الأعور .

وقصته أن هارون الأعور كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو ، وناظر إنسان يوماً في مسألة فغلبه هارون فلم يدر المغلوب ما يصنع ، فقال له : أنت كنت يهودياً فأسلمت ، فقال له هارون : فبئس ما صنعت ، فغلبه هارون في هذا . وأتفق أصحاب الحديث أن : أبا الحسن الأشعري كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث ، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث ، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة ، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين

من أهل القبلة والخارجين عن الملة سيفاً مسلولاً ومن طعن فيه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة ، ولم يكن أبو الحسن الأشعري أول متكلم بلسان أهل السنة ، وإنما جرى على سنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف ، فزاده حجة وبياناً ، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به وليس له في المذاهب أكثر من بسطه وشرحه كغيره من الأئمة .

وقال أبو بكر بن فورك : رجع أبو الحسن الأشعري عن الاعتزال إلى مذهب أهل السنة سنة ٣٠٠ هـ .

وممن قال من العلماء برجوع الأشعري عن الاعتزال أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان الشافعي المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، قال : في « وفيات الأعيان » الجزء الثاني صفحة ٤٦٦ : كان أبو الحسن الأشعري معتزلياً ثم تاب .

ومنهم عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

قال في « البداية والنهاية » : الجزء الحادي عشر صفحة ١٨٧ : « كان أبو الحسن الأشعري معتزلياً فتاب منه بالبصرة فوق المنبر ، ثم أظهر فضائح المعتزلة وقبائحهم » .

ومنهم شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشافعي الشهير بالذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ : قال في كتابه « العلو للعلي الغفار » : « كان أبو الحسن أولاً معتزلياً أخذ عن أبي علي الجبائي ثم نابذه ورد عليه وصار متكلماً للسنة ، ووافق أئمة الحديث ، فلو انتهى أصحابنا المتكلمون إلى مقالة أبي الحسن ولزموها لأحسنوا ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل في الأشياء ومشوا خلف المنطق فلا قوة إلا بالله » .

وممن قال برجوعه تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧١ هـ قال في « طبقات الشافعية الكبرى » الجزء الثاني صفحة ٢٤٦ : « أقام أبو الحسن على الاعتزال أربعين سنة حتى صار للمعتزلة إماماً ، فلما أراده الله لنصرة دينه وشرح صدره لإتباع الحق غاب عن الناس في بيته ، وذكر كلام ابن عساكر المتقدم بحروفه » .

ومنهم برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ قال في كتابه « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » صفحة ١٩٣ : كان أبو الحسن الأشعري في ابتداء أمره معتزلياً ثم رجع إلى هذا المذهب الحق ، مذهب أهل السنة ، فكثر التعجب منه وسئل عن ذلك فأخبر أنه رأى النبي ﷺ في رمضان فأمره بالرجوع إلى الحق ونصره ، فكان ذلك والحمد لله تعالى .

ومنهم السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى ، في كتابه « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » الجزء الثاني صفحة ٣ قال : أبو الحسن الأشعري أخذ علم الكلام عن الشيخ أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة . ثم فارق لمنام رآه ، ورجع عن الاعتزال ، وأظهر ذلك إظهاراً . فصعد منبر البصرة ثوم الجمعة ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني ، أنا فلان ابن فلان كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في الدار الآخرة بالأبصار وأن العباد يخلقون أفعالهم ، وها أنا تائب من الاعتزال معتقداً الرد على المعتزلة ، ثم شرع في الرد عليهم والتصنيف على خلافهم .

ثم قال ابن كثير : ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال :

أولها : حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة .

والحال الثاني : إثبات الصفات العقلية السبعة ، وهي الحياة ، والعلم ،

والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك .

والحال الثالث : إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف ، وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً .

وبهذه النقول عن هؤلاء الأعلام ثبت ثبوتاً لا شك فيه ولا مرية أن أبا الحسن الأشعري استقر أمره بعد أن كان معتزلياً على عقيدة السلف التي جاء بها القرآن الكريم وسنة النبي عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم .

وبعد إتمام هذا الحديث حول رجوعه عن الاعتزال نقر بحثاً ثانياً في صحة نسبة « الإبانة عن أصول الديانة » إليه رداً على بعض الأغمار الذين زعموا **أنها مدسوسة عليه ــ وهذا بيت القصيد فنقول : وبالله نستعين :**

ثبوت نسبة الإبانة إلى أبي الحسن الأشعري والرد على من أنكر ذلك وزعم إنها مدسوسة عليه .

وقبل البحث في صحة نسبة هذا الكتاب إلى أبي الحسن نذكر نبذة قليلة من تواليفه التي ألفها بعد توبته من الاعتزال .

فنقول : قال الحافظ ابن عساكر في كتابه « تبيين كذب المفتري » : ذكر ابن حزم الظاهري أن لأبي الحسن الأشعري خمسة وخمسين تصنيفاً ، ثم قال : ترك ابن حزم من عدد مصنفاته أكثر من مقدار النصف ، وبعد ذلك سردها فقال : منها كتاب « اللمع » ، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

ومنها تفسير المختزن ، وهو خمسمائة مجلد لم يترك فيه آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها ، وجعلها حجة لأهل الحق ، وبين المجمل وشرح المشكل ونقض فيه ما حرفه الجبائي والبلخي في تفسيريهما .

ومنها « الفصول في الرد على الملحدين والخارجين على الملة » كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه .

ومنها « مقالات المسلمين » استوعب فيه جميع اختلافهم ومقالاتهم وذكرها الحافظ ابن عساكر بأسمائها وموضوعاتها في كتابه « التبيين » من صفحة ١٢٨ إلى صفحة ١٣٦ ، وقد أطلعت أنا الجامع لهذه الرسالة على ثلاثة من الكتب المذكورة ، وهي مطبوعة : « اللمع » ، و « الإبانة » ، و « المقالات الإسلامية » .

وقال ابن عساكر في صفحة ٢٨ من « التبيين » : وتصانيف أبي الحسن الأشعري بين أهل العلم مشهورة معروفة ؛ وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة ، ومن وقف على كتابه المسمى « الإبانة » عرف موضعه من العلم والديانة .

ثم قال في صفحة ١٥٢ : فإذا كان أبو الحسن كما ذكر عنه من حسن الإعتقاد ، مستصوب المذهب عند أهل المعرفة بالعلم والانقياد يوافقه في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد ، ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد ، فلا بد أن نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة ، ونتجنب أن نزيد فيه أو ننقص منه تركاً للخيانة ، لتعلم حقيقة حاله في صحة عقيدته في أصول الديانة ، فاسمع ما ذكره في أول كتابه الذي سماه بالإبانة ونذكر ما يأتي في آخر الرسالة إن شاء الله تعالى :

ثم قال في صفحة ١٧١ في جملة أبيات نسبها لبعض المعاصرين له :

لـــو لم يـــصنف عمـــره	غـــير الإبانـــة واللمـــع
لكفـــى فكيـــف وقـــد تفنـــ	ـــن في العلـــوم بمـــا جمـــع
مجموعـــة تـــربى علـــى المثنـــ	ـــين ممـــا قـــد صـــنع
لم يـــأل في تـــصنيفها	أخـــذاً بأحـــسن مـــا اســـتمع
فهـــدى بهـــا المـــسترشديـ	ـــن ومـــن تـــصفحها انتفـــع

تتلـــى معــــاني كتبــــه   فـــوق المنـــابر في الجمـــع

ويخـــاف مـــن افحامـــه   أهـــل الكنـــائس والبيـــع

فهـــو الـــشجا في حلـــق مـــن   تـــرك المحجـــة وابتـــدع

وممن عزا الإبانة إلى أبي الحسن الأشعري ، الحافظ الكبير أبو بكر أحمد ابن الحسين بن علي البيهقي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

قال في كتاب « الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد » في باب القول في القرآن صفحة ٣١ ، ذكر الشافعي رحمه الله ما دل على أن ما نتلوه من القرآن بألسنتنا ونسمعه بآذاننا ، ونكتبه في مصاحفنا يسمى كلام الله عز وجل ، وأن الله عز وجل كلم به عباده بأن أرسل به رسوله ﷺ ، وبمعناه ذكره أيضاً علي بن إسماعيل في كتاب الإبانة .

وقال في صفحة ٣٢ من الكتاب المذكور آنفاً : قال أبو الحسن علي بن إسماعيل في كتابه ، يعني الإبانة : فإن قال قائل : حدثونا ، تقولون إن كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ ، قيل له : نقول ذلك ، لأن الله قال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ فالقرآن في اللوح المحفوظ وهو في صدور الذين أوتوا العلم ، وهو متلو بالألسنة ، قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾ والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة ، محفوظ في صدورنا في الحقيقة ، متلو بألسنتنا في الحقيقة ، مسموع لنا في الحقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال : في صفحة ٢٦ بعد سرد الأدلة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

وقد احتج علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله تعالى بهذه الفصول . اهـ.
من نسخة مخطوطة يرجع تاريخ خطها إلى سنة ١٠٨٦ هـ .

ومن ذكر الإبانة وعزاها لأبي الحسن الأشعري الحافظ المعروف بالذهبي، في كتابه « العلو للعلي الغفار » صفحة ١٦٠ :

قال الأشعري في كتاب « الإبانة عن أصول الديانة[١] » له في باب الإستواء فإن قال قائل : ما تقولون في الإستواء .

قيل نقول : إن الله مستو على عرشه كما قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ إلى آخر ما في الإبانة .

ثم قال : وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن الأشعري شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه الإمام محيي الدين النووي .

وذكر الذهبي عن الحافظ أبي العباس أحمد بن ثابت الطرقي : أنه قال : قرأت في كتاب أبي الحسن الأشعري الموسوم بالإبانة أدلة على إثبات الإستواء .

ونقل عن أبي علي الدقاق أنه سمع زاهر بن أحمد الفقيه يقول : مات الأشعري رحمه الله ورأسه في حجري فكان يقول شيئاً في حال نزعه . لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا . اهـ . كلام البيهقي .

ومن نسبها إلى أبي الحسن الأشعري ابن فرحون المالكي قال في كتابه « الديباج » صفحة ١٩٣ : ولأبي الحسن الأشعري كتب منها كتاب اللمع الكبير، واللمع الصغير ، وكتاب الإبانة عن أصول الديانة ا.هـ .

ومن عزاها لأبي الحسن الأشعري أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ .

قال في الجزء الثاني من كتابه « شذرات في أعيان من ذهب » صفحة ٣٠٣

---

(١) انظر صفحة ٩٧ .

قال أبو الحسن الأشعري في كتابه « الإبانة عن أصول الديانة » وهو آخر كتاب صنفه . وعليه يعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه ، ثم ذكر فصلاً كاملاً من الإبانة

وممن عزاها لأبي الحسن الأشعري السيد مرتضى الزبيدي .

قال في « إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » في الجزء الثاني صفحة ٢ ، قال : صنف أبو الحسن الأشعري بعد رجوعه من الاعتزال الموجز، وهو في ثلاث مجلدات ، كتاب مفيد في الرد على الجهمية والمعتزلة، ومقالات الإسلاميين ، وكتاب الإبانة .

وقد تقدم حكاية عن ابن كثير : أن الإبانة هي آخر كتاب صنفه أبو الحسن الأشعري .

وممن ذكر أن الإبانة تأليف أبي الحسن الأشعري أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الشافعي ، قال في رسالته « الذب عن أبي الحسن الأشعري » : اعلموا معشر الإخوان أن كتاب الإبانة عن أصول الديانة ، الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري هو الذي استقر عليه أمره فيما يعتقده وبه كان يدين لله سبحانه وتعالى بعد رجوعه من الاعتزال بمن الله ولطفه ، وكل مقالة تنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه منها ، وكيف وقد نص فيه على أنه ديانته التي يدين لله سبحانه بها .

وروى وأثبت أنه ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين .

وأن ما فيه هو الذي يدل عليه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهل يسوغ أن يقال : إنه رجع عن هذا إلى غيره فإلى ماذا يرجع أنراه يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون وأئمة الحديث المرضيون وقد علم أنه مذهبهم ، ورواه عنهم ؟؟!! .

هذا لعمري ! ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين وكيف بأئمة الدين ، أو هل يقال : إنه جهل فيما نقله عن السلف الماضيين مع إفنائه جل عمره في استقراء المذاهب وتعرف الديانات .

هذا مما لا يتوهمه منصف ، ولا يزعمه إلا مكابر مسرف ، وقد ذكر الإبانة واعتمد عليها وأثبتها عن الإمام أبي الحسن الأشعري وأثنى عليه بما ذكره فيها وبرأه من كل بدعة نسبت إليه ، ونقل منها تصنيفه جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم .

وذكر ابن درباس طائفة من الذين قدمنا ذكرهم وزاد الحافظ أبو العباس أحمد بن ثابت الطرقي ، وذكر عنه أنه قال في بيان مسألة الاستواء من تأليفه : رأيت هؤلاء الجهمية ينتمون في نفي علو الله على العرش وتأويل الإستواء إلى أبي الحسن الأشعري ، وما هذا بأول باطل أدعوه وكذب تعاطوه ، فقد قرأت في كتابه الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة أدلة من جملة ما ذكرته على إثبات الإستواء ، ومنهم الإمام الأستاذ الحافظ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد الصابوني ذكره عنه أنه ما كان يخرج إلا مجلس درسه إلا بيده كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري ويظهر الإعجاب بها ، ويقول : ما الذي ينكر على من هذا الكتاب شرح مذهبه (هذا قول الإمام أبي عثمان وهو من أعيان أهل الأثر بخراسان) .

ومنهم إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي ذكر الإمام أبا الحسن الأشعري رحمه الله تعالى فقال : وله كتاب في السنة سماه كتاب الإبانة صنفه ببغداد لما دخلها ، وذكر ابن درباس أنه وجد كتاب الإبانة في كتب أبي الفتح نصر المقدسي ـ رحمه الله تعالى ـ ببيت المقدس وقال : رأيت في بعض تآليفه في الأصول فصولاً منها بخطه .

ومنهم الفقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب « الذخائر في الفقه » ، قال:

ابن درباس أنبأني غير واحد عن الحافظ أبي محمد المبارك بن علي البغدادي ونقلته أنا من خطه في آخر كتاب الإبانة ، قال : نقلت هذا الكتاب جميعه من نسخة كانت مع الشيخ الفقيه المجلي الشافعي أخرجها في مجلدة فنقلتها وعارضت بها ، وكان رحمه الله يعتمد عليها وعلى ما ذكره فيها ويقول : لله من صنفه ! ويناظر على ذلك من ينكره ، وذكر ذلك لي وشافهني به ، قال : هذا مذهبي وإليه أذهب ، نقلت هذا في سنة ٥٤٠ هـ بمكة وهذا آخر ما نقلت من خط ابن الطباخ .

وذكر فيمن عزاها إلى أبي الحسن أبا محمد بن علي البغدادي نزيل مكة ، قال ابن درباس : شاهدت نسخة من كتاب الإبانة بخطه من أوله إلى آخره وهي بيد شيخنا الإمام رئيس العلماء الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن بن المفضل المقدسي ونسخت منها نسخة ، وقابلتها عليها بعد أن كنت كتبت نسخة أخرى مما وجدته في كتاب الإمام نصر المقدسي ببيت المقدس ولقد عرضها بعض أصحابنا على عظيم من عظماء الجهمية المنتمين افتراءاً إلى أبي الحسن الأشعري ببيت المقدس فأنكرها وجحدها ، وقال : ما سمعنا بها قط ولا هي من تصنيفه، واجتهد آخراً في إعمال رويته ليزيل الشبهة بفطنته ، فقال بعد تحريك لحيته : لعله ألفها لما كان حشوياً ، قال ابن درباس : فما دريت من أي أمريه أعجب ؟ أمن جهله بالكتاب مع شهرته وكثرة من ذكره في تصانيفه من العلماء أو من جهله بحال شيخه الذي يفتري عليه بانتمائه إليه ، واشتهاره قبل توبته من الاعتزال بين الأمة عالمها وجاهلها ، فإذا كانوا بحال من ينتمون إليه بهذه المثابة فكيف يكونون بحال السلف الماضيين وأئمة الدين من الصحابة والتابعين وأعلام الفقهاء والمحدثين ، وهم لا يلون على كتبهم ولا ينظرون في آثارهم ، وهم والله بذلك أجهل وأجهل كيف لا وقد قنع بعض من ينتمي منهم إلى أبي الحسن الأشعري بمجرد دعواه وهو في الحقيقة مخالف لمقالة أبي الحسن التي رجع إليها واعتمد في تدينه عليها ، قد ذهب صاحب التأليف إلى المقالة الأولى ،

وكان خلاف ذلك أحرى وأولى لتستمر القاعدة وتصير الكلمة واحدة .ا.هـ كلام ابن درباس رحمه الله .

وممن ذكر الإبانة ونسبها إلى أبي الحسن الأشعري تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الشهير بابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، قال في الفتوى الحموية الكبرى صفحة ٧٠ : قال أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه الإبانة عن أصول الديانة ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه فقال : فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة وذكر ما في أول كتاب الإبانة بحروفه ، وسيأتي ذكره إن شاء الله قريباً .

وممن عزاها إلى أبي الحسن الأشعري شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي الدمشقي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ قال في كتابه « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » الطبعة الهندية صفحة ١١١ : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولما رجع الأشعري من مذهب المعتزلة سلك طريق أهل السنة والحديث وانتسب إلى الإمام أحمد بن حنبل كما ذكر ذلك في كتبه كلها كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها . ثم قال ابن القيم : وأبو الحسن الأشعري وأئمة أصحابه كالحسن الطبري وأبي عبد الله بن المجاهد والقاضي أبي بكر الباقلاني متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن ، كالاستواء والوجه واليدين وعلى إبطال تأويلها وليس للأشعري في ذلك قولان أصلاً ، ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين ولكن لأتباعه قولان في ذلك .

ولأبي المعالي الجويني في تأويلها قولان : أولها في الإرشاد ورجع عن تأويلها في رسالته النظامية وحرمه ، ونقل إجماع السلف على تحريمه وأنه ليس بواجب ولا جائز ، ثم ذكر ابن القيم قول أبي الحسن الأشعري إمام الطائفة

الأشعرية ، ثم قال : نذكر كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه كالموجز والإبانة والمقالات .

وقال ابن القيم في قصيدته النونية التي سماها « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » الطبعة المصرية صفحة ٦٨ :

والأشعري قال في تفسير استوى ... بحقيقة استوى من البهتان

هو قول أهل الاعتزال وقول اتبـ ... ـاع لجهم وهو ذو بطلان

في كتبه قد قال ذا من موجز ... وإبانة ومقالة ببيان

وقال في صفحة ٦٩ من الكتاب المذكور آنفاً :

وحكى ابن عبد البر في تمهيده ... وكتاب الاستذكار غير جبان

إجماع أهل العلم أن الله ... فوق العرش بالإيضاح والبرهان

وأتى هناك بما شفى أهل الهدى ... لكنه مرض على العميان

وكذا علي الأشعري فإنه ... في كتبه قد جاء بالتبيان

من موجز وإبانة ومقالة ... ورسائل للثغر بالإيضاح والبرهان

وأتى بتقرير العلو بأحسن التقر ... ير فانظر كتبه بعيان : انتهى

قلت : هذه نقول الأئمة الأعلام التي تضمنت بالصراحة التي لا يتناطح عليها عنزان أن كتاب الإبانة ليس مدسوساً على أبي الحسن الأشعري كما زعمه الأغمار من المقلدة بل هو من تواليفه التي ألفها أخيراً واستقر أمره على ما فيها من عقيدة السلف التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية .

وبعد هذا رغبت أن أتحف القارئ بقطعة من عقيدة هذا الإمام التي رجع إليها وذكرها في إبانته ، أذكرها بفصها ونصها ليظهر لكل منصف قرأها بفهم أن أبا الحسن الأشعري تاب من التعطيل والتأويل كما أنه ليس بممثل بل هو مثبت

ومعتقد كل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه أو أخبر به عنه نبيه عليه الصلاة والسلام من غير تعطيل ولا تأويل ولا تمثيل .

فأقول : قال أبو الحسن الأشعري في إبانته (باب في إبانة قول أهل الحق والسنة) .

فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي تقولون وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم مفخم .

وجملة قولنا إنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئاً .

وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله مستوٍ على عرشه كما قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

وأن له وجهاً كما قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ .

وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وكما قال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ .

وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾

وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً .

وأن لله علماً كما قال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ وكما قال : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ .

ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج .

ونثبت أن لله قوة كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ونقول : إن كلام الله غير مخلوق وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن فكان كما قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله .

وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ولا يستغني عن الله ولا يقدر على الخروج عن علم الله عز وجل ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأن أعمال العبد مخلوقة لله مقدرة . كما قال : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون ، كما قال : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ ، وكما قال : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وكما قال ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ وكما قال : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ .

وهذا في كتاب الله كثير ، وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر لهم وأصلحهم وهداهم وأضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ، كزعم أهل الزيغ والطغيان ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا مهتدين .

وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم .

وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ، ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا .

ونلجئ في أمورنا إلى الله ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه .

وندين بأن الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ .

ونقول : أن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة ، كما قال عز وجل : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وأن موسى عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا ، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً ، فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا .

وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون .

ونقول : إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبههما مستحلاً لها غير معتقد لتحريهما كان كافراً .

ونقول : إن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل إسلام إيماناً .

وندين لله عز وجل بأنه يقلب القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل.

وأنه عز وجل يضع السموات والأرض على إصبع والأرضين على إصبع كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ .

وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة .

ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين .

ونقول : إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة الرسول ﷺ تصديقاً لما جاءت به الروايات عن الرسول ﷺ .

ونؤمن بعذاب القبر ، وبالحوض .

وأن الميزان حق ، والصراط حق ، والبعث بعد الموت حق ، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين .

وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

ونسلم بالروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ .

وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين .

ونقول : إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضوان الله عليه .

وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين ، وقدمه المسلمون بالإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة ، وسموه جميعهم خليفة رسول الله ﷺ .

ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه وإن الذين قتلوه ظلماً وعدواناً .

ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها ، ونتولى سائر أصحاب النبي ﷺ ونكف عما شجر بينهم .

وندين الله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم في الفضل وغيرهم .

ونصدق جميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول هل من سائل ، هل من مستغفر ، وبسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل ، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه : ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا ، ولا نقول على الله ما لا نعلم .

ونقول : إن الله عز وجل يجيء يوم القيامة كما قال : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

وأن الله عز وجل يقرب من عباده كيف شاء كما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ وكما قال : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ .

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وغيره . كما روي أن عبد الله بن عمر عنهما كان يصلي خلف الحجاج .

وأن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر ، خلافاً لمن أنكر ذلك ، ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة .

وندين بإنكار الخروج بالسيف وترك القتال في الفتنة ، ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ .

ونؤمن بعذاب القبر ونكير ومنكر ومسائلتهما المدفونين بقبورهم ، ونصدق بحديث المعراج .

ونصحح كثيراً من الرؤيا في المنام ونقر أن لذلك تفسيراً .

ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم : ونؤمن أن الله ينفعهم بذلك ، ونصدق بأن في الدنيا سحرة وسحراً ، وأن السحر كائن موجود في الدنيا .

وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وتوراثهم .

ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن من مات وقتل فبأجله مات وقتل ، وأن الأرزاق من قبل الله يرزقها عباده حلالاً وحراماً ، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويسلكه ويتخبطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمية ، كما قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ وكما قال : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ .

ونقول : إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله عز وجل بآيات يظهرها عليهم وقولنا في أطفال المشركين : إن الله يؤجج لهم في الآخرة ناراً ثم يقول لهم اقتحموها ، كما جاءت بذلك الرواية .

وندين الله عز وجل بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون ، وما كان وما يكون وما لا يكون ، أن لو كان كيف كان يكون ، وبطاعة الأئمة المسلمين، ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعته ومجانبة أهل الهوى . انتهى بحروفه .

هذا مجمل عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري التي استقر أمره عليها بعد أن أقام على مذهب الاعتزال أبعين عاماً . ذكره في أول كتابه الإبانة وفصله باباً باباً فراجعها إن شئت تجد ما يشفي ويكفي .

فتأمل أيها الأخ المنصف هذه العقيدة ما أوضحها وأبينها واعترف بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحها وبينها ، وانظر سهولة لفظها فما أفصحه وأحسنه . وكن ممن قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ وتبين فضل أبي الحسن الأشعري واعرف إنصافه واسمع وصفه للإمام أحمد بن حنبل بالفضل ، لتعلم أنهما كانا في الاعتقاد متفقين وفي أصول الدين ومذهب السنة غير مفترقين .

ولعمري أن هذه العقيدة ينبغي لكل مسلم أن يعتقدها ولا يخرج عن شيء منها إلا من في قلبه غش ونكد .

نسأل الله تعالى الثبات عليها ونستودعها عند من لا تضيع عنده وديعة . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله وسلم على نبينا محمد معلم الخيرات وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم تجزى فيه الحسنات .

حماد الأنصاري

مقدمة الطبعة الأولى

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فهذا كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » للإمام علي بن إسماعيل ابن إسحاق ، أبي الحسن الأشعري رحمه الله من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، نقدمه للناس في وقت أحوج ما يكون فيه المسلمون إلى تصحيح عقائدهم ، والرجوع فيها إلى النبع الصافي ، من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وكتابه هذا يعطينا صورة صادقة لما كانت عليه عقيدة الأمة في قرونها الخيرة التي تلقوها عن أئمتهم ، أخذاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتبين كيف بثوها بين الناس ودعوا إليها ، وذبوا عنها ، وامتحنوا من أجلها .

وذكر على سبيل المثال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة في

عصره ،وما امتحن به من أجل عقيدة الإسلام من قبل المعتزلة الذين حاولوا أن يحكموا عقولهم ويقدِّموها على كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، لذلك قال الأشعري في أول كتابه : « وقولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل _ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته _ قائلون » .

هذه عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري التي استقر أمره عليها بعد أن أقام على مذهب الاعتزال إلى ما بعد الأربعين من عمره ، حيث أيقظ عز وجل بصيرته ، وهو في بداية نضجه وذلك سنة ٣٠٤ هـ ، فأعلن رجوعه عن تعطيل المعتزلة ، وأظهر فضائحهم وقبائحهم ، ولذلك شنعوا عليه ونسبوا إليه الأباطيل

وممن قال برجوعه من مذهب الاعتزال : ابن خلكان في « وفيات الأعيان» والحافظ الذهبي في « العلو للعلي الغفار » ، وابن كثير في « البداية والنهاية » ، والسبكي في « طبقات الشافعية » ، وابن فرحون المالكي في « الديباج المذهب» والمرتضى في « شرح الإحياء » .

وقد مرَّ الإمام الأشعري بثلاثة أحوال : الحال الأول : الاعتزال ، وقد تاب منه ورجع عنه ، والحال الثاني : إثبات الصفات العقلية السبعة ، وهي : الحياة، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وتأويل الصفات الخبرية ، كالوجه ، واليدين ، والقدم ، والساق ، والحال الثالث : إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف الصالح رضي الله عنهم ، وهي طريقته في « الإبانة » الذي ألفه أخيراً .

وممن عزا « الإبانة » إليه : الإمام البيهقي ، والحافظ الذهبي ، وابن فرحون المالكي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ،

وابن كثير ، وابن العماد الحنبلي .

وهو آخر كتاب صنفه وعليه يعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه .

قال شيخ الإسلام : ولما رجع الأشعري عن مذهب المعتزلة ، سلك طريق أهل السنة والحديث ، وانتسب إلى الإمام أحمد بن حنبل كما ذكر ذلك في كتبه كـ « الإبانة » وغيرها .

وقال ابن القيم : وأبو الحسن الأشعري وأئمة أصحابه متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن كالاستواء ، والوجه ، واليدين ، وعلى إبطال تأويلها .

وهي عقيدة السلف الصالح التي تلقوها عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين لهم بإحسان ، وهي العقيدة السليمة والطريقة المستقيمة ، التي ينبغي على كل مسلم أن يسلك سبيلها ، وأن يسير على منهاجها ، وهي أسلم وأحكم ، بلا شك ولا ريب .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اتبعوا ولا تبتدعوا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا . وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول . وقال الإمام الشافعي رحمه الله : آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله تعالى ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الزم طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ، ولا تغتر بكثرة الهالكين ، والله تبارك وتعالى

تكفل بحفظ شريعته في كتابه المبين ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ . ورسول الله ﷺ قال في حديثه المروي من طرق : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

طبعات الكتاب :

طبع الكتاب أربع طبعات قبل هذه الطبعة :

الأولى : في الهند في حيد أباد الدكن في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢١ هـ .

الثانية : في مصر المطبعة المنيرية .

الثالثة : في مطبعة الجمل المصرية سنة ١٣٤٩ هـ .

الرابعة : في مصر ١٣٩٧ هـ بتحقيق الدكتورة فوقية محمود التي قالت إنها اعتمدت في ذلك على أربع نسخ خطية ، وقدمت للكتاب بمقدمة وأرفقته بحواشي تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف نص « الإبانة » .

والطبعات الأربعة مليئة بالأخطاء والتصحيف الذي لم تنج من الآيات والأحاديث وخاصة الطبعة الرابعة المحققة !! كما أنه لم تخل هذه الطبعات من سقط وإن كان قليلاً .

العمل في الكتاب :

لقد تعذر الحصول على مخطوط للكتاب ، لذا تم تصحيحه على الطبعات الآنفة الذكر . فقد قمت مع الأستاذ حسن السماحي ـ جزاه الله خيراً ـ بمقابلة الطبعات بعضها على بعض للوصول إلى نص أقرب إلى الصواب .

ثم قمنا بتخريج أحاديث الكتاب تخريجاً وافياً بالرجوع إلى كتب السنة المطهرة .

وخرجنا الآيات القرآنية ووضعها من رسم المصحف .

وبذلك خرج هذا الكتاب أقرب إلى الكمال عن طبعاته السابقة . وعسى الله أن ييسر في مستقبل الأيام ـ إن شاء الله ـ تقديمه في صورة أكمل وأفضل إنه على كل شيء قدير ، ونسأل الله عز وجل أن يثبتنا على الاعتقاد الصحيح ، والسبيل السليم ، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق ١ ذي الحجة / ١٤٠٠ هـ — الشيخ حماد بن محمد الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين
وهو حسبي ونعم الوكيل

قال السيّد الشيخ الإمام العالم أبو الحسن عليُّ بن إسماعيل بن علي ابن أبي بشر الأشعري البصري رحمه الله :

١ - الحمد لله الأحد[١] الواحد، العزيز الماجد، المتفرد بالتوحيد، المتَمَجِّد[٢] بالتمجيد، الذي لا تَبْلُغُه صفاتُ العبيد، ليس له مثل ولا نَديد، وهو المبدي المعيد، الفعَّالُ لما يريد، جلَّ عن اتخاذ الصاحبة والأبناء[٣]، وتقدس عن ملامسة النساء[٤]، فليست له عثرة تُقال، ولا حَدٌّ يُضْرَب له فيه المثال، لم يزل بصفاته أولاً قديراً، ولا يزال عالماً خبيراً، سبق[٥] الأشياءَ عِلْمُهُ، ونفذت فيها إرادتُه، ولم تعزُب عنه خفيَّات الأمور، ولم تغيِّره سوالفُ صُروف الدهور، ولَمْ يَلْحَقْه في خَلقِ شيءٍ مما خلق كَلال ولا تعبٌ، ولا مَسَّهُ لُغوبٌ ولا نَصَبٌ، خَلَقَ الأشياءَ بقدرته، ودبَّرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذلَّلها بعزته، فذلَّ لعظمته المتكبِّرون، واستكان لعز[٦] ربوبيته المتعظِّمون،

---

(١) زيادة من مقدمة الكتاب كما وردت في «التبيين» ص ١٥٢ .

(٢) في نسخة المتفرد، وما أثبتناه من غالب النسخ، وهو الموافق لمقدمة الكتاب التي ذكرها ابن عساكر في «التبيين» ص١٥٢ .

(٣) في الأصول: الصواحب والأولاد، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر، انظر «التبيين» .

(٤) في نسخة: للألبة الأجناس والأرجاس، وما أثبتناه من بعض الأصول، ومن نسخة ابن عساكر.

(٥) في الأصول: استوفى، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر لعله الصواب، والله أعلم .

(٦) في نسخة ابن عساكر: لعظمته .

وانقطع دون الرسوخ في علمه الممترون[1]، وذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فِطَنُ ذوي الألباب، وقامت بكلمته[2] السموات السبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياحُ اللواقحُ، وسار في جو السماء السحابُ، وقامت على حدودها البحار، وهو الله الواحدُ القهَّار[3]، يخضعُ له المتعزِّزون، ويخشع له المُترفعون، ويدين طوعاً وكرهاً له العالمون.

* * *

٢- نحمَدُهُ كما حمِدَ نفسه، وكما هو[4] أهله ومستحقه، وكما حَمِدَه الحامدون من جميع خلقه، ونستعينه استعانة من فوَّض أمرَه إليه، وأقَرَّ أنَّه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، ونستغفره استغفار مُقِرٍّ بذنبه، معترف بخطيئته.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً بوحدانيته، وإخلاصاً لربوبيته، وأنه العالِمَ بما تُبْطِنُه الضمائر، وتَنْطَوي عليه السرائر، وما تخفيه النفوس، وما تخزن[5] البحار، وما تواريه الأسرار، ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، لا تُوارى عنه كلمةٌ، ولا تَغيب عنه غائبة ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، ويعلم ما يعمل العاملون، وما يَنْقَلِب إليه المنقلبون[6].

٣ - ونستهدي[7] الله بالهدى، ونَسألُهُ التوفيق لمجانبة الردى.

٤ - ونشهد أن محمداً ﷺ عبده ونبيه، ورسوله إلى خلقه، وأمينه

---

(١) في الأصول: العالمون، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.
(٢) في نسخة: بحكمته.
(٣) في نسخة ابن عساكر: وهو إله قاهر.
(٤) في نسخة ابن عساكر: كما ربنا له أهل ونستعينه .. إلخ.
(٥) في الأصول: تجن، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.
(٦) في نسخة ابن عساكر: وإلى أن ينقلب المنقلبون.
(٧) في الأصول: ونستهديه، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.

على وحيه، أرسله إلى خلقه بالنور الساطع، والسراج اللامع، والحُجَج الظاهرة، والبراهين والآيات الباهرة، والأعاجيب القاهرة، فَبلَّغَ عن الله رسالاته، ونصح له في بريَّاته، وجاهد في الله حق الجهاد، وقاتل أهل العناد، حتى تمت كلمة الله عزَّ وجل، وظَهَرَ أمْرُهُ، وانقادَ الناسُ للحق أجمعين[1] حتى أتاه اليقين، لا وانياً ولا مقصراً، فصلوات الله عليه من قائدٍ إلى الهدى، مُبين[2] عن ضلالة وعمى، وعلى آل بيته الطيبين، وعلى أصحابه المنتخَبين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين.

عرَّفنا الله به[3] الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، وبيَّن لنا به شريعةَ الإسلام، حتى انجلت عنا طَخْياء[4] الظلام، وانحسرت به عنا الشبهات، وانكشفت به عنا الغيابات، وظهرت لنا به البينات.

وجاءنا بكتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢] جمع فيه عِلْمَ الأولين والآخرين، وأكمل به الفرائض والدين، فهو صراط الله المستقيم، وحبلُه المتين، من تَمسَّك به نجا، ومن خالفه ضَلَّ وغوى، وفي الجهل تَردَّى، وحَثَّ الله في كتابه على التمسك بسنة رسوله ﷺ، فقال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧] وقال عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]. وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]. وقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، يقول: إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) في الأصول: خاضعين، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.

(٢) مبين: مزيل.

(٣) في نسخة ابن عساكر: صلوات الله على من أظهر الشرائع.... إلخ.

(٤) طخياء الظلام: الظلمة الشديدة.

وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤]، وقال : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ [يونس:١٥] .

وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: ٥١]، فأمرهم[١] أن يسمعوا قوله، ويطيعوا أمره، ويحذروا مخالفته. وقال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فأمرهم بطاعةِ رَسولِهِ ﷺ كما أمرهم بطاعته، ودعاهم إلى التمسك بسنة نبيه ﷺ، كما أمرهم بالعمل بكتابه.

٥ - فَنَبَذَ كثيرٌ ممن غلبت عليهم شقوتهم[٢]، واستحوذ عليهم الشيطان سُنَنَ نبي الله ﷺ وراء ظهورهم، ومالوا إلى أسلافٍ لهم قلدوهم بدينهم، ودانوا بدياناتهم، وأبطلوا سُنَنَ رسول الله ﷺ، ورفضوها[٣] وأنكروها وجحدوها، افتراءً منهم على الله، ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوة خَضِرَةٌ، تغرُّ أهلَها ، وتَخْدَعُ سكَّانَها ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥]. من كان فيها في حَيْرَةٍ[٤] أعقبته بعدها عَبْرة، ومن أعطته من سرَّائها بطناً أعقبته من ضرَّائها ظهراً، غرَّارةٌ، غرور ما فيها، فانية، فَانٍ ما عليها، كما حكم عليها ربُّها بقوله تعالى، إذ يقول:

---

(١) في نسخة ابن عساكر: وأمرهم .

(٢) في الأصول: شقوته، وما أثبتناه أصح، وفي نسخة ابن عساكر اختلاف يسير عما ها هنا، ففيه: غلبت عليه شقوته، واستحوذت عليه بليته، ثم تتوافق مع الأصول .

(٣) في نسخ: دفعوها .

(٤) لعلها حَبْرَة: بالباء الموحدة وهي النعمة، كما في « اللسان » .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] .

فاعملوا رحمكم الله للحياة الدائمة، ولخلود الأبد، فإن الدنيا تنقضي عن أهلها، وتبقى الأعمالُ قَلائدَ في رقابِ أهلها .

واعلموا أنكم ميِّتون، ثم إنكم من بعد موتكم إلى ربكم راجعون[1] ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١]. فكونوا بطاعة ربكم عاملين، وعما نهاكم منتهين .

* * *

(١) في نسخة ابن عساكر: تصيرون .

الباب الأول[1]
في إبانة قول أهل الزيغ والبدعة

٦- أما بعد: فإن كثيراً من الزائغين عن الحق من المعتزلة[2] وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من أسلافهم، فتأوَّلوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم يُنْزِل به الله سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسولِ ربِ العالمين، ولا عن السلف المتقدمين.

٧- فخالفوا روايات الصحابة - رضي الله عنهم - عن نبي الله صلوات الله عليه وسلامه في رؤية الله عز وجل بالأبصار، وقد جاءت في ذلك الروايات من الجهات المختلفات، وتواترت بها الآثار، وتتابعت بها الأخبار.

٨- وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين، وردوا[3] الروايات في ذلك عن السلف المتقدمين.

٩- وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذَّبون، وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ .

---

(١) في نسخ: باب، وفي أخرى: فصل، وإدخال أل التعريف على الباب، ووصفه بالأول من المحقق وكذلك في باقي الأبواب.

(٢) قال أبو الحسين الخياط في كتابه «الانتصار»: ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي. انظر بيان ذلك في «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان.

(٣) في نسخة: دفعوا.

١٠- ودانوا بخلق القرآن نظيراً لقول إخوانهم من المشركين الذين قالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥] فزعموا أن القرآن كقول البشر.

١١- وأثبتوا، وأيقنوا أن العباد يخلقون الشر، نظيراً لقول المجوس الذين أثبتوا خالِقَيْن: أحدهما يخلق الخير، والآخر يخلق الشر[١].

وزعمت القدرية[٢] أن الله عز وجل يَخْلُقُ الخير، وأن الشيطان يخلق الشر.

١٢- وزعموا أن الله عَز وجل يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون من أن: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ورداً لقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الإنسان:٣٠]. فأخبر تعالى أنَّا لا نشاء شيئاً إلا وقد شاء الله أن نشاءه، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة:١٣]، ولقوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦]، ولقوله تعالى مخبراً عن نبيه شعيب ﷺ أنه قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[الأعراف: ٨٩] ولهذا سماهم رسول الله ﷺ «مجوس هذه الأمة»[٣]؛ لأنهم دانوا بديانة المجوس، وضاهوا أقاويلهم.

---

(١) انظر كتاب «زرادشت الحكيم» لحامد عبد القادر ص٧٩ وما بعدها.

(٢) القدرية: هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى.

(٣) رواه أبو داود رقم (٤٦٩١) في السنة: باب في القدر، والحاكم في «المستدرك» ١/٨٥ من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «القدرية مجوس هذه الأمة»، وأحمد في «المسند» ٨٦/٢ من حديث عبد الله بن عمرو أيضاً بلفظ: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر»، والآجري في «الشريعة» (٩٠).
رواه أيضاً أحمد في «المسند» ٥/٤٠٦و٤٠٧. وأبو داود رقم (٤٦٩٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
ابن ماجه رقم (٩٢) في المقدمة، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. =

وزعموا أن للخير والشر خالِقَيْن، كما زعمت المجوس ذلك، وأنه يكون من الشرور ما لا يشاء الله، كما قالت المجوس.

وزعموا أنهم يملكون الضرَّ والنفع لأنفسهم دون الله عز وجل، رداً لقول الله عزَّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ [الأعراف:١٨٨] وإعراضاً[١] عن القرآن، وعما أجمع عليه أهل الإسلام.

١٣- وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم، فأثبتوا لأنفسهم الغنى عن الله عز وجل، ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يَصِفُوا الله عزَّ وجلَّ بالقدرة عليه، كما أثبتت المجوس لعنهم الله للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوا لله عز وجل، فكانوا « مُجوسَ هذه الأُمَّةِ»؛ إذ دانوا بديانة المجوس، وتمسكوا بأقاويلهم ومالوا إلى أضاليلهم.

١٤- وقَنَّطوا الناس من رحمة الله، وآيسوهم من روحه، وحكموا على العصاة بالنار والخلود فيها، خلافاً لقول الله عز وجل: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

١٥- وزعموا أن من دخل النار لا يخرج منها، خلافا لما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ: « أنَّ الله عزَّ وَجَلَّ يُخْرِجُ مِنَ النَّار قوماً بَعْدَ أَنْ امتَحَشُوا فِيهَا وَصَاروا حِـمَماً »[٢].

= له شاهد بالمعنى عند الحاكم١/٨٥ من حديث أبي هريرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بلفظ: « لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم » وهو حديث حسن بطرقه وشواهده كما في « صحيح الجامع » رقم (٤٣١٨).

(١) في نسخة ابن عساكر: وانحرافاً.

(٢) رواه البخاري رقم (٨٠٦) في الأذان: باب فضل السجود، ورقم (٦٥٧٣) في الرقاق: باب الصراط جسر جهنم، ورقم (٧٤٣٧) في التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾، ومسلم رقم (١٨٢) في الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، من حديث أبي هريرة ﷺ.
قوله: « امتحشوا »: أي احترقوا.

١٦- ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

١٧- وأنكروا أن له يدان مع قوله سبحانه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

١٨- وأنكروا أن يكون له عين مع قوله سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

١٩- وأنكروا أن يكون لله علم مع قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦].

٢٠- وأنكروا أن تكون لله قوة مع قوله سبحانه: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

٢١- ونفوا ما رُوي عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا......»(١) وغير ذلك مما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، في التهجد: باب الدعاء والصلاة في آخر الليل، ورقم (٦٣٢١) في الدعوات: باب الدعاء نصف الليل، ورقم (٧٤٩٤)في التوحيد: باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ومسلم رقم (٧٥٨) في المسافرين: باب الترغيب في الدعاء والذكر، وأبو داود رقم (٤٧٣٣) في السنة: باب في الرد على الجهمية، وابن ماجه رقم (١٣٦٦) في إقامة الصلاة: باب أي ساعات الليل أفضل، ومالك في «الموطأ» ١/٢١٤، وأحمد في «المسند» ٢/٢٥٨، ٢٦٧، ٢٨٢، ٤١٩، ٤٨٧، ٥٠٤، والدارمي ١/٣٤٦-٣٤٧، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الباب عن علي وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم عند أحمد، وعن جبير بن مطعم ورفاعة الجهني رضي الله عنهما عند النسائي، وعن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما عند الطبراني، وعن عقبة بن عامر وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم عند الدارقطني. انظر «الإرواء» رقم (٤٥٠). وقد أفرد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى شرح هذا الحديث بمصنف مستقل أسماه «شرح حديث النزول» وهو مطبوع.

٢٢- وكذلك جميع أهل البدع من الجهمية[١] والمرجئة[٢] والحرورية[٣]، أهل الزيغ فيما ابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة، وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وأجمعت عليه الأمة كفعل المعتزلة والقدرية، وأنا ذاكر ذلك باباً باباً، وشيئاً شيئاً إن شاء الله، وبه المعونة والتأييد، ومنه التوفيق والتسديد .

* * *

---

(١) الجهمية: نسبة إلى جهم بن صفوان، وهم الجبرية الخالصة، وافقوا المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزادوا عليهم أشياء أخرى .

(٢) الإرجاء على معنيين: أحدهما التأخير، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أمهله وأخره، والثاني: إعطاء الرجاء، أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد، وأما بالمعنى الثاني فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وقيل: الإرجاء تأخير الحكم على صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يحكم عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة، أو من أهل النار. اهـ. « أبو حنيفة » لأبي زهرة ص(١٥١) .

المرجئة: وهم أصناف، صنف منهم يقول: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وصنف يؤخر حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يحكم عليه إلا في الدنيا من كَفَرَتِه من أهل الجنة أو من أهل النار . اهـ . انظر « مقالات الإسلاميين » للمصنف رحمه الله تعالى ١٣/١.

(٣) الحرورية: هم الخوارج، ونسبتهم هذه إلى « حروراء »: وهو موضع بظاهر الكوفة، وبه كان أول اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عليّاً رضي الله عنه وخرجوا عليه .

البَابُ الثَّاني
في إِبَانَةِ قَوْلِ أَهْلِ الحَقِ والسُّنَّةِ

٢٣- فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

٢٤- قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسكُ بكتاب الله ربنا عزَّ وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به[1] أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضَّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته، قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، عند ظهور[2] الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكِّين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وجليل معظَّم، وكبير مفخَّم، وعلى جميع أئمة المسلمين.

٢٥- وجملة قولنا: إنَّا نُقِرُّ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً[3][4].

---

(١) في نسخة ابن عساكر: وبما كان عليه.
(٢) في الأصول: ودفع به، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.
(٣) في نسخة ابن عساكر: أن.
(٤) انظر «شرح الطحاوية» ص(٤٠٣).

وأن الله عزَّ وجل إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً[1].

وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق[2].

٢٦- وأن الجنةَ حقٌّ والنارَ حَقٌّ[3]، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور[4].

٢٧- وأن الله تعالى استوى على عرشه كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥][5].

٢٨- وأن له سبحانه وجهاً بلا كيف، كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] .

٢٩- وأن له سبحانه يَدَينْ بلا كيف[6]، كما قال سبحانه: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص: ٧٥] . وكما قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] .

٣٠- وأن له عيناً بلا كيف، كما قال سبحانه: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] .

٣١- وأن من زعم أن اسم[7] الله غيره كان ضالاً .

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(١٥- ٤٢) .
(٢) انظر « شرح الطحاوية » ص(١١٠- ١٣٥) .
(٣) انظر « شرح الطحاوية » ص(٤٨٤- ٤٩٩) .
(٤) انظر « شرح الطحاوية » ص(٤٦٣- ٤٨٤) .
(٥) جاء في نسخة بلدية الإسكندرية ها هنا زيادة لم ترد في بقية الأصول، وربما تكون مقحمة من الناسخ وهي قوله: على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن الممارسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء، إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات على العرش، كما أنه رفيع الدرجات على الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد .
(٦) في نسخة ابن عساكر: وأن له يداً .
(٧) في الأصول: أسماء، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر، انظر« شرح الطحاوية » ص(٨٠- ٨١) .

٣٢- وأن لله علماً كما قال: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦] وكما قال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر: ١١] .

٣٣- ونثبت أن لله قوة[1] كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ .

٣٤- ونثبت لله السمعَ والبصرَ، ولا ننفي ذلك، كما نَفَتْهُ المعتزلة والجهمية والخوارج .

٣٥- ونقول: إن كلام الله غيرُ مخلوق، وإنه سبحانه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له: « كن فيكون »، كما قال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠][2] .

٣٦- وأنَّه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عزَّ وجلَّ، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله .

---

(١) هكذا في الأصول، وفي نسخة ابن عساكر: قدرة .

(٢) قال القاضي ابن أبي العز الحنفي في « شرح العقيدة الطحاوية » ص(١٤٩- ١٥٠) بتحقيقنا:
بل كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، كما قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى في « الفقه الأكبر »، وهو في هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل المكتوب في المصحف كلام الله، فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه خط فلان وكتابته، فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد قد كتب به، فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: المداد في المصحف، كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والأرض، وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خط فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله، ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضلَّ ولم يهتد للصواب .
وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القارىء والمقروء الذي هو قول الباري، من لم يهتد له فهو ضال أيضاً، ولو أن إنساناً وجد في ورقة مكتوباً :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

من خط كاتب معروف لقال: هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، وهذا خبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى. اهـ .

ولا نستغني عن الله، ولا نقدر على الخروج من علم الله عزَّ وجل[(١)].

٣٧- وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة له، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦][(٢)].

وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣]، وكما قال: ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]، وكما قال سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧]، وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] . وهذا في كتاب الله كثير .

٣٨- وأن الله وفَّق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر إليهم[(٣)]، وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلطف بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨][(٤)].

وأن الله يَقْدِر أنْ يُصْلِح الكافرين، ويلطف بهم[(٥)] حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وخذلهم وطبع على قلوبهم[(٦)].

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٩٣- ٩٨) .
(٢) انظر شرح الطحاوية ص(٧٢- ٧٣ و٨٧- ٩٢) .
(٣) في نسخة ابن عساكر: لهم .
(٤) انظرشرح الطحاوية ص(٢٤٧- ٢٥٠) .
(٥) في نسخة ابن عساكر: لهم .
(٦) كتب الحسن البصري رسالة إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر؛ « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد كفر، إن الله لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى غلبة، لأن المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية، فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم كان ذلك عجزاً عن القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة =

٣٩- وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره، وأنا نؤمن بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره، ونعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا[(١)].

وأنا لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً[(٢)] إلا ما شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨][(٣)].

٤٠- وأنا نَلْجَأُ في أمورنا إلى الله، ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه.

٤١- ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر[(٤)].

٤٢- وندين بأن الله تعالى يُرى في الآخرة[(٥)] بالأبصار، كما يُرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ[(٦)].

= عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم». اهـ. «أبو حنيفة» لمحمد أبو زهرة ص(١٥٨).

(١) روى الترمذي رقم (٢٥١٨) في صفة القيامة: باب رقم ٢٦٠، وأحمد في «المسند» ١/٢٩٣ و٣٠٣ و٣٠٧، وابن السني رقم (٤٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». وهو حديث صحيح. انظر شرح الحديث لابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في رسالته: «نور الاقتباس في شرح وصية ابن عباس» طبعتنا.

(٢) في الأصول: وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.

(٣) انظر «شرح الطحاوية» ص(١٠٥- ١٠٨) و (٢٤٨- ٢٩٠).

(٤) في نسخة ابن عساكر: كان كافراً.

(٥) في نسخة ابن عساكر: يوم القيامة.

(٦) انظر «شرح الطحاوية» ص(١٦٣- ١٨١) و(١٤٥- ٢٠٤). وتقدم الحديث ص٤٠ رقم (٢).

ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة، كما قال الله عزَّ وجلّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وأن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكّاً، فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا.

٤٣- وندين[١] بأن لا نُكَفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج، وزعموا أنهم بذلك كافرون.

ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحِلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً.

ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمان[٢].

٤٤- وندين بأن الله تعالى يُقلِّب القلوب «وَأَنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابعه[٣][٤]»، وأن الله عز وجل «يضع السماوات والأرضين على أصبع»[٥]، كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ من غير تكييف.

---

(١) في نسخة ابن عساكر: ونرى.

(٢) انظر «شرح الطحاوية» ص(٣٣٨- ٣٥٠).

(٣) في نسخة: أصابع الله عز وجل.

(٤) مسلم رقم (٢٦٥٤) في القدر: باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، وأحمد في «المسند» ٢/ ١٦٨ و١٧٣ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وفي الباب عن أنس والنواس بن سمعان وأم سلمة وعائشة رضي الله عنهم.

(٥) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧] رواه البخاري رقم (٤٨١١) في التفسير: باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ورقم (٧٤١٣ و ٧٤١٤و ٧٤١٥)، ومسلم رقم (٢٧٦٨) في المنافقين: باب صفة القيامة والجنة والنار، والترمذي رقم (٣٢٣٦و ٣٢٣٨) في التفسير: باب ومن سورة الزمر، وأحمد في «المسند» ١/ ٤٥٧.

٤٥- وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنةً ولا ناراً[(١)] إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين[(٢)].

٤٦- ونقول: إن الله عز وجل يخرج من النار قوماً « بعد أن امتحشوا[(٣)] بشفاعة رسول الله ﷺ »، تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ[(٤)].

٤٧- ونؤمن بعذاب القبر ونقول: إنَّ الحوض والميزان حق، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف، ويحاسب المؤمنين[(٥)].

٤٨- وأن الإيمان قولٌ وعَملٌ، يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ.

٤٩- وندين بحب السلف الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ،

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص (٤٢٤- ٤٢٥).

(٢) في بعض النسخ زيادة: [أجارنا الله منها بشفاعة سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ] وهي غير موجودة في نسخة ابن عساكر، فالأرجح أنها مقحمة من الناسخ.

(٣) خروجهم من النار بعد أن امتحشوا، تقدم تخريجه ص(٤٠).

(٤) حديث الشفاعة رواه البخاري رقم (٣٣٤٠) في الأنبياء: باب قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، ورقم(٤٤٧٦) باب يزفون: النسلان في المشي، ورقم(٤٧١٢) في تفسير سورة بني إسرائيل: باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ومسلم رقم (١٩٤) في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة، وأحمد في « المسند » ٥٤٠/٢، والترمذي رقم (٢٤٣٦) في صفة القيامة: باب ما جاء في الشفاعة، من حديث أبي هريرة ﷺ.
والبخاري (٤٤٧٦) في التفسير، و(٦٥٦٥) في الرقاق، و(٧٤١٠) في التوحيد، ومسلم رقم (١٩٣)، وابن ماجه رقم (٤٣١٢) في الزهد؛ باب ذكر الشفاعة، وأحمد في « المسند » ١١٦/٣ و٢٤٤ من حديث أنس ﷺ.

(٥) انظر « شرح الطحاوية » ص(٢٢٠- ٢٥٣) و(٤٥١- ٤٦٣).

ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم، ونتولاهم أجمعين[1].

٥٠- ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسـول الله ﷺ أبـو بكـر الـصديق رضوان الله عليه، وإن الله سبحانه وتعـالى أعـزّ بـه الـدين، وأظهـره علـى المرتدين، وقدّمه المسلمون للإمامة، كما قدمه رسول الله ﷺ للـصلاة[2]، وسَمَوْهُ بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ.

ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم عثمان بـن عفـان نـضَّر الله وجهـه، وأن الـذين قتلـوه قتلـوه ظلمـاً وعدواناً.

ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلافتـهم خلافـة النبوة.

٥١- ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها[3].

---

(١) انظر «شرح الطحاوية» ص(٤٣٣- ٤٣٤) و (٥٤٥- ٥٥٢).

(٢) وهو قوله ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» رواه البخاري رقم (٦٧٨) في الأذان: بـاب أهـل العلم والفضل أحق بالإمامة، ورقم (٣٣٨٥) ي الأنبياء: باب قول الله تعـالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، ومسلم رقم (٤٢٠) في الصلاة: باب استخلاف الإمام إذا عرض له عـذر مـن مـرض وسـفر وغيرهما، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وفي الباب عن عائشة والعباس رضي الله عنهما.

(٣) وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعتـه يقـول: «عـشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنـة، وعمـر في الجنـة، وعثمـان في الجنـة، وعلـي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عـوف في الجنة» ولو شئت لسميت العاشر، قال: فقالوا: من هو؟ فسكت. قال: فقالوا: من هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد. وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يَغْبَـرُّ فيـه وجهـه خـير مـن عمـل أحدكم، ولو عُمِّرَ عُمُرَ نوح. رواه أبو داود رقم (٤٦٤٩و ٤٦٥٠) في السنة: بـاب في الخلفـاء، والترمذي رقم (٣٧٤٩و ٣٧٥٨) وابن ماجه رقم (١٣٤). وهو حديث صحيح.
انظر «شرح الطحاوية» ص(٥٧١- ٥٧٧).

ونتولى سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ونكف عما شجر بينهم.

وندين بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون، مهديون فضلاء، لا يوازيهم في الفضل غيرهم.

٥٢- ونصدق جميعَ الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، « وأن الرب عز وجل يقول: هَلْ مِنْ سَائِلٍ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ »[(١)]، وسائر ما نقلوه و أثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل.

٥٣- ونعوِّل فيما اختلفنا فيه على كتاب رَبِّنا عز وجل، وسنة نبينا ﷺ، وإجماع المسلمين، وما كان في معناه[(٢)]، ولا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها[(٣)]، ولا نقولُ على الله مالا نعلم.

٥٤- ونقول: إنَّ الله عزّ وجلّ يجيء يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] وإن الله يَقْرُب من عباده كيف شاء بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وكما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم:٨ - ٩].

---

(١) تقدم تخريجه ص(١٥).

(٢) أي القياس. انظر حجية القياس في كتاب « الرسالة » للإمام الشافعي بتحقيق أحمد محمد شاكر.

(٣) قال ابن أبي العز في « شرح الطحاوية » ص(٣٩٢): كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولاً، فما وافقته قال: إنه محكم وقبله واحتج به، وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده وسمى رده تفويضاً، أو حرَّفه وسمى تحريفه تأويلاً. اهـ.

قلت: وأما المتكلمون فقد أسقطوا النصوص كلها بحجة أنها أدلة سمعية وأن المعمول عندهم على الأدلة العقلية، ولازم كلامهم أن النصوص لا وزن لها في ميزان العقل.

انظر في بيان التحذير من البدع: « الحوادث والبدع » للطرطوشي، و« الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبي شامة، وهما من تحقيقنا من منشورات مكتبة دار البيان بدمشق.

٥٥- ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد خلف كل برٍّ وفاجر، كذلك وسائر الصلوات والجماعات[(١)] كما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يصلي خلف الحجاج[(٢)].

٥٦- وأن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر، خلافاً لقول من أنكر ذلك[(٣)].

٥٧- ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم، إذا ظهر منهم ترك الاستقامة[(٤)].

وندين بإنكار الخروج بالسيف، وترك القتال في الفتنة[(٥)].

٥٨- ونقر بخروج الدجال[(٦)] كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ[(٧)].

---

(١) قال أبو جعفر المنصور لشبيب بن شيبة التميمي، وذلك قبل أن يلي الأمر: فأما الصلاة ففرض الله تعالى تعبد بها خلقه، فأدِّ ما فرض الله عليك في كل وقت مع كل أحد وعلى كل حال، فإن الذي ندبك لحج بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك في كتابه بأنه لا يقبل منك نسكاً إلا مع أكمل المؤمنين إيماناً، ولو فعل ذلك بك ضاق عليك الأمر، فاسمح يسمح لك.اهـ. عن كتاب «أبي جعفر المنصور» لعلي أدهم.

(٢) انظر «شرح الطحاوية» ص(٤١٨- ٤٢٤).

(٣) أنكر ذلك الخوارج.

(٤) انظر «شرح الطحاوية» ص(٣٩٧- ٤٠٢).

(٥) انظر «شرح الطحاوية» ص(٤٢٦- ٤٣٠).

(٦) في نسخة: أعاذنا الله من فتنته.

(٧) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق». رواه البخاري رقم (١٨٨١) في فضائل المدينة: باب لا يدخل الدجال المدينة.

٥٩- ونؤمن بعذاب القبر، ومُنْكَرٍ ونَكِيرٍ[1] عليهما الصلاة والسلام، ومساءلتهما المدفونين في قبورهم[2][3].

---

(١) في نسخة: عليهما الصلاة والسلام.

(٢) انظر «شرح الطحاوية» ص(٤٥١- ٤٦٣).

(٣) روى أحمد في «المسند» ٢٨٧/٤و ٢٩٥- ٢٩٦، والحاكم في «المستدرك»، وأبو داود رقم (٤٢٥٣) في السنة: باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، والنسائي ١٠١/٤في الجنائز: باب عذاب القبر، و٣٧/١- ٤٠ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كُنَّا في جنَازَة في بَقِيعِ الْغَرْقَد، فَأَتَانَا النبي ﷺ، فَقَعَدَ وقَعَدْنَا حَوْلَه، كَأَنَّ على رُؤُوسنَا الطَّيْرَ، وَهُوَ يُلْحَدُ لَه، فَقَالَ: «أَعُوذُ بالله منْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، ثلاث مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ: «إنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمنَ إذَا كَانَ في إقْبَالٍ منَ الآخرة وَانْقطَاعٍ منَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إليه الملائكة، كَأَنَّ على وُجُوههمُ الشَّمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ منْ أَكْفَان الْجَنَّة، وَحَنُوطٌ منْ حَنُوط الْجَنَّة، فَجَلَسُوا منْهُ مَدَّ الْبَصَر، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ الْمَوْت حتى يَجْلسَ عنْدَ رَأْسه، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، اخْرُجي إلى مَغْفرَة منَ الله وَرضْوَان»، قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسيلُ كَمَا تَسيلُ الْقَطْرَة منْ في السِّقَاء، فَيَأْخُذُهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَده طَرْفَة عَيْنٍ، حتى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذَلكَ الْكَفَن وَذَلكَ الْحَنُوط، وَيَخْرُجُ منْهَا ريح كَأَطْيَبِ نَفْحَة مسْك وُجدَتْ على وَجْه الْأَرْض»،

قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بهَا ، فلا يَمُرُّونَ بهَا - يعني على ملأ منَ الملائكة- إلا قَالُوا: مَا هذه الرُّوحُ الطَّيِّبَة؟ فَيَقُولُونَ: فلان ابْنُ فلان، بأَحْسَنِ أَسْمَائه التي كَانُوا يُسَمُّونَه بهَا في الدُّنْيَا، حتى يَنْتَهُوا بهَا إلى السَّمَاء، فَيَسْتَفْتحُونَ له، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُه منْ كُلِّ سَمَاء مُقَرَّبُوهَا، إلى السَّمَاء التي تَليهَا، حتى يُنْتَهَى بهَا إلى السَّمَاء التي فيها الله، فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كتَابَ عَبْدي في علِّيِّينَ، وَأَعيدُوه إلى الأرض، فَإنِّي منْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفيهَا أُعيدُهُمْ، وَمنْهَا أُخْرجُهُمْ تَارَة أُخرى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَده، فَيَأْتيه مَلَكَان، فَيُجْلسَانه، فَيَقُولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي الله، فَيَقُولان له: مَا دينُكَ؟ فَيَقُولُ: ديني الإسلام، فَيَقُولاَن له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعثَ فيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله، فَيَقُولان له: مَا علْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كتَابَ الله فَآمَنْتُ به وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادي مُنَاد منَ السَّمَاء: أَنْ صَدَقَ عَبْدي، فَأَفْرشُوه منَ الْجَنَّة، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الْجَنَّة، قَالَ: فَيَأْتيه منْ رَوْحهَا وَطيبهَا، وَيُفْسَحُ له في قَبْره مَدَّ بَصَره، قَال: وَيَأْتيه رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْه، حَسَنُ الثِّيَاب، طَيِّبُ الرِّيح، فَيَقُولُ: أَبْشرْ بالَّذي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ له: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْه الذي يَجيءُ بالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالحُ، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، أَقم السَّاعَة حتى أَرْجعَ إلى أَهْلي وَمَالي.

قَالَ: وَإنَّ الْعَبْدَ الْكَافرَ إذَا كَانَ في انْقطَاعٍ منَ الدُّنْيَا وَإقْبَال منَ الآخرَة، نَزَلَ إليه منَ السَّمَاء مَلائكَة سُودُ الْوُجُوه، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلسُونَ منه مَدَّ الْبَصر، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ الْمَوْت حتى يَجْلس عنْدَ رَأْسه، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبيثَة، اخرُجي إلى سَخَط منَ الله وَغَضَب، قَالَ : فَتَتَفَرَّقُ في جَسَده، فَيَنْتَزعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ منَ الصُّوف الْمَبْلُول، فَيَأْخُذُهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَده طَرْفَة =

٦٠- ونصدق بحديث المعراج(١)، ونصحح كثيراً من الرؤيا في المنام، ونقول(٢) إن لذلك تفسيراً.

٦١- ونرى الصدقة على موتى المسلمين، والدعاء لهم، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك(٣).

=عَيْنٍ، حتى يَجْعَلُوهَا في تلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرض، فَيَصْعَدُونَ بهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بهَا على مَلَإٍ منَ الْمَلَائكة إلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائه التي كَانَ يُسَمَّى بِهَا في الدُّنْيَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ له، فَلَا يُفْتَحُ له، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَه في سِجِّينٍ، في الأرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحاً، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَده، وَيَأْتيه مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانه، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لا أَدْرِي، فَيَقُولَان له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ، فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ منَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوه منَ النَّارِ، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى النَّارِ، فَيَأْتيه منْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عليه قَبْرُه، حتى تَخْتَلِفَ فيه أَضْلَاعُه، وَيَأْتيه رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْه، قَبِيحُ الثِّيَاب، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْه يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ».
وهو حديث صحيح. انظر «شرح العقيدة» ص(٤٥١- ٤٦٣).

(١) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ـ وذكر يعني رجلاً بين الرجلين ـ فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً، وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق، فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على آدم فسلمت عليه، فقال: مرحباً بك من ابن ونبي، فأتينا السماء الثانية ....». الحديث.
رواه البخاري رقم (٣٢٠٧) في بدء الخلق: باب ذكر لملائكة، ورقم (٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧)، ومسلم رقم (١٦٢) في الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات.
انظر «شرح الطحاوية» ص(٢١٣- ٢٢٠).

(٢) في الأصول: نقر، وما أثبتناه من نسخة ابن عساكر.

(٣) انظر «شرح الطحاوية» ص(٥٢٥- ٥٣٤).

٦٢- ونصدق بأن في الدنيا سحراً [وسحرة][1]، وأن السحر كائنٌ موجود في الدنيا[2][3].

٦٣- وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة، بَرِّهِم وفَاجِرهم، وتوارثهم[4].

٦٤- ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان[5].

٦٥- وأن من مات وقتل فبأجله مات وقتل.

٦٦- وأن الأرزاق من قِبَل الله عز وجل، يرزقها عباده حلالاً وحراماً، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخبَّطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمية، كما قال الله عزّ وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[البقرة:٢٧٥] وكما قال: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[الناس:٤-٦].

٦٧- ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله عزّ وجلّ بآيات ويظهرها عليهم.

٦٨- وقولنا في أطفال المشركين: « إن الله تعالى يؤجج لهم في الآخرة ناراً، ثم يقول لهم: اقتحموها »، كما جاءت بذلك الرواية[6].

---

(١) ليست في نسخة ابن عساكر.

(٢) يؤثر السحر على النفس الإنسانية تأثيراً حقيقياً، أما قلب حقائق الأشياء لتحويل الحبال إلى أفاعي وغير ذلك فهو وهمي.

(٣) انظر « شرح الطحاوية » ص(٥٩٤- ٦٠٧).

(٤) انظر « شرح الطحاوية » ص (٤١٨- ٤٢٤).

(٥) انظر « شرح الطحاوية » ص (٤٨٤ – ٤٩٩).

(٦) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في « الفتح » ٣/٢٤٦- ٢٥١:
واختلف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة على أقوال:
أحدها: أنهم في مشيئة الله تعالى، وهو منقول عن الحمادين وابن المبارك وإسحاق، ونقله البيهقي في « الاعتقاد » عن الشافعي في حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البر: وهو=

٦٩- وندين الله عز وجل بأنه يعلم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون، وما لا يكون، وأنْ لو كان كيف كان يكون[1].

٧٠- وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين .

٧١- ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة، ومجانبة أهل الأهواء .

وسَنَحتَّجُّ لما ذكرناه من قولنا، وما بقي منه مما لم نذكره باباً باباً،

=مقتضى صنيع مالك، وليس عنده في هذه المسألة شيء منصوص، إلا أن أصحابه صرحوا بأن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة، والحجة فيه حديث: « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

ثانيها: أنهم تبع لآبائهم، فأولاد المسلمين في الجنة وأولاد الكفار في النار، وحكاه ابن حزم عن الأزارقة من الخوارج، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وتعقبه بأن المراد قوم نوح خاصة، وإنما دعا بذلك لما أوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ وأما حديث « هم من آبائهم أو منهم » فذاك ورد في حكم الحربي، وروى أحمد من حديث عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن ولدان المسلمين، قال: « في الجنة ». وعن أولاد المشركين، قال: « في النار » فقلت: يا رسول الله لم يدركوا الأعمال، قال: « ربك أعلم بما كانوا عاملين، لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار » وهو حديث ضعيف جداً لأن في إسناده أبا عقيل مولى بهية وهو متروك .

ثالثها: أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار، لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة، ولا سيئات يدخلون بها النار .

رابعها: خدم أهل الجنة، وفيه حديث عن أنس ضعيف أخرجه أبو داود الطيالسي وأبو يعلى، وللطبراني والبزار من حديث سمرة مرفوعا: «أولاد المشركين خدم أهل الجنة» وإسناده ضعيف.

خامسها: أنهم يصيرون تراباً، روي عن ثمامة بن أشرس.

سادسها: هم في النار حكاه عياض عن أحمد، وغلطه ابن تيمية بأنه قول لبعض أصحابه ولا يحفظ عن الإمام أصلاً .

سابعها: أنهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم النار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبى عذب، أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ بن جبل، وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في « كتاب الاعتقاد » أنه المذهب الصحيح .

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(١٠٥- ١٠٨) و(٢٤٧- ٢٤٨) و(٢٧٦- ٢٧٨) .

وشيئاً شيئاً[1] إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) بعد ذلك قال الحافظ هبة الله بن عساكر - رحمه الله تعالى -: فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد: ما أوضحه وأبينه! واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحه وبينه، وانظروا سهولة لفظه فما أفصحه وأحسنه، وكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر:١٨] وتبينوا فضل أبي الحسن، واعرفوا إنصافه، واسمعوا وصفه لأحمد بالفضل واعترافه، لتعلموا أنهما كانا في الاعتقاد متفقين، وفي أصول الدين ومذهب السنة غير مفترقين، ولم تزل الحنابلة ببغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات تعتضد بالأشعرية على أصحاب البدع؛ لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات، فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فبلسان الأشعرية يتكلم، ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم. اهـ. « التبيين » ص(١٦٣) .

الباب الثالث

الكلام في إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ يعني مشرقة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] يعني رائية، وليس يخلو النظر من وجوه نحن ذاكروها :

١- إما أن يكون الله عز وجل عنى نظر الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] .

٢- أو يكون عنى نظر الانتظار كقوله تعالى:﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:٤٩] .

٣- أو أن يكون عنى نظر التعطف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] .

٤- أو يكون عنى نظر الرؤية .

فلا يجوز أن يكون الله عز وجل عنى نظر التفكير والاعتبار؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار .

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه، فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه، كما إذا ذكر أهل اللسان نظر القلب، فقالوا: انظر في هذا الأمر بقلبك، لم يكن معناه نظر العينين، ولذلك إذا ذكر

النظر مع الوجه لم يكن معناه نظر الانتظار الذي بالقلب، وأيضاً فإن نظر الانتظار لا يكون في الجنة؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، وأهل الجنة لهم « مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ »[1] من العيش السليم والنعيم المقيم، وإذا كان هذا هكذا، لم يجز أن يكونوا منتظرين؛ لأنهم كلما خطر ببالهم شيء أتوا به مع خطوره ببالهم .

وإذا كان ذلك كذلك، فلا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم .

وإذا فسدت الأقسام الثلاثة، صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو أن معنى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] .أنها رائية ترى ربها عز وجل[2] .

٧٢- ومما يبطل قول المعتزلة: أن الله عز وجل أراد بقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نظر الانتظار، أنه قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ونظر الانتظار لا يكون مقروناً بقوله: « إلى » ؛ لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر الانتظار « إلى »، ألا ترى أن الله تعالى لما قال: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس:٤٩] لم يقل « إلى »؛ إذا كان معناه الانتظار. وقال عز وجل مخبراً عن بلقيس: ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:٣٥] فلما أرادت الانتظار لم تقل « إلى ».

وقال امرؤ القيس :

فَإِنَّكُمَا إِنْ تَنْظُرَانِي سَاعَةً ... مِنَ الدَّهرِ تنفعني لدَى أُمِّ جُنْدُبِ

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. رواه البخاري في بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ورقم (٤٧٧٩ و٤٧٨٠ و٧٤٩٨)، ومسلم رقم (١٨٩) في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزلة .

(٢) يسمى هذا الاستدلال: السبر والتقسيم .

فلما أراد الانتظار لم يقل: « إلى » فلما قال سبحانه: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ علمنا أنه لم يرد الانتظار، وإنما أراد نظر الرؤية .

ولما قرن الله النظر بذكر الوجه أراد نظر العينين اللتين في الوجه، كما قال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة:١٤٤]، فذكر الوجه، وإنما أراد تَقَلَّبَ عينيه نحو السماء ينتظر نزول الملك عليه بصرف الله له عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة .

* * *

فإن قال قائل: لم لا تقولون: إن قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ إنما أراد إلى ثواب ربها ناظرة ؟.

قيل له: ثواب الله عز وجل غيره تعالى، والله سبحانه وتعالى قال:﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ولم يقل: إلى غيره ناظرة، والقرآن العزيز على ظاهره، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة، وإلا فهو على ظاهره .

ألا ترى أن الله عز وجل لما قال: صَلُّوا لي واعبدوني، لم يجز أن يقول قائل: إنه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره؛ فلذلك لما قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة .

ثم يقال للمعتزلة: إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله عز وجل: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة، فَلِمَ لا جاز لغيركم أن يقول: إن قول الله عز وجل: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] أراد بها لا تدرك غيره، ولم يرد أنها لا تدركه؟ وهذا ما لا يقدرون على الفرق فيه .

٧٤- ودليل آخر :

ومما يدل على أن الله تعالى يرى بالأبصار قول موسى ﷺ :

﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] . ولا يجوز أن يكون موسى صلوات الله عليه وسلامه الذي قد ألبسه الله تعالى جلباب النبيين، وعصمه بما عصم به المرسلين، قد سأل ربه ما يستحيل عليه، وإذا لم يجز ذلك على موسى ﷺ فقد علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً، وأن الرؤية جائزةٌ على ربنا عزَّ وجلَّ .

ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا تعالى كما زعمت المعتزلة، ولم يعلم ذلك موسى عليه الصلاة والسلام، وعلموا هم، لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا مما لا يدَّعيه مسلم .

* * *

٧٥- فإن قال قائل: ألستم تعلمون حكم الله في الظهار اليوم، ولم يكن نبي الله ﷺ يعلم ذلك قبل أن ينزل؟

قيل له: لم يكن يعلم نبي الله ﷺ ذلك قبل أن يلزم الله العباد حكم الظهار، فلما لزمهم الحكم به أعلم نبيه قبلهم، ثم أعلم نبيُّ الله عبادَ الله ذلك، ولم يأت عليه وقته لزمه حكمه، فلم يعلمه عليه الصلاة والسلام .

وأنتم زعمتم أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد لزمه أن يعلم حكم الرؤية، وأنها مستحيلة عليه، وإذا لم يعلم ذلك وقت أن لزمه علمه، وعلمتموه أنتم الآن، لزمكم بجهلكم، أنكم بما لزمكم العلم به الآن أعلم من موسى عليه الصلاة والسلام بما لزمه العلم به، وهذا خروج عن دين المسلمين .

* * *

٧٦- ودليل آخر :

مما يدل على جواز رؤية الله تعالى بالأبصار قول الله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

فلما كان الله عز وجل قادراً على أن يجعل الجبل مستقراً، كان قادراً على الأمر الذي لو فعله لرآه موسى صلى الله عليه وسلم، فدل ذلك على أن الله تعالى قادر أن يُري عباده نفسه، وأنه جائز رؤيته .

فإن قال قائل: فلِم لا قلتم إن قولَ الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[الأعراف:١٤٣] تبعيد للرؤية؟ قيل له: لو أراد الله عز وجل تبعيد الرؤية لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه، ولم يقرنه بما يجوز وقوعه، فلما قرنه باستقرار الجبل، وذلك أمر مقدور لله سبحانه وتعالى، دل ذلك على أنه جائز أن يُرى الله عز وجل .

ألا ترى أن الخنساء لما أرادت تبعيد صُلْحِها لمن كان حرباً لأخيها قرنت الكلام بأمر مستحيل، فقالت[1] :

وَلا أُصالِحُ قَوماً كُنْتُ حَرْبَهُمُ حَتَّى تَعُودَ بَيَاضاً حُلْكَةُ القَارِ

والله عز وجل إنما خاطب العرب بلغتها، تجده مفهوماً في كلامها، ومعقولاً في خطابها

فلما قرن الله الرؤية بأمر مقدور جائز، علمنا أن رؤية الله بالأبصار جائزة غير مستحيلة .

---

(١) ديوانها ص(٥٥- ٥٦) من قصيدة مطلعها :

يا عين جودي بدمع منك مغزار وابكي لصخر بدمع منك مدرار

وبعده الشاهد لكن روايته في الديوان :

ولا أسالم قوماً كنت حربهم حتى تعود بياضاً جونة القار

٧٧- ودليل آخر :

قال الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. قال أهل التأويل: النظر إلى الله عز وجل، ولم يُنْعِم الله عز وجل على أهل جنانه بأفضل من نظرهم إليه ورؤيتهم له .

وقال عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]. قيل: النظر إلى الله عز وجل.

وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] وإذا لقيه المؤمنون رأوه.

وقال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] فحجبهم عن رؤيته، ولا يحجب عنها المؤمنين .

* * *

٧٨- سؤال :

فإن قال قائل: فما معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؟ [الأنعام:١٠٣] .

قيل له: يحتمل أن يكون: لا تدركه في الدنيا وتدركه في الآخرة؛ لأن رؤية الله تعالى أفضل اللذات، وأفضل اللذات تكون في أفضل الدارين .

ويحتمل أن يكون الله عز وجل أراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يعني: لا تدركه أبصار الكافرين المكذبين، وذلك أن كتاب الله يُصدِّقُ بعضه بعضاً، فلما قال في آية: إن الوجوه تنظر إليه يوم القيامة، وقال في آية أخرى: إن الأبصار لا تدركه، علمنا أنه إنما أراد أبصار الكفار لا تدركه .

٧٩- مسألة والجواب عنها :

فإن قال قائل: قد استكبر الله تعالى سؤال السائلين له أن يُرى بالأبصار، فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟

مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [النساء:١٥٣] .

فيقال لهم: إن بني إسرائيل سألوا رؤية الله عز وجل على طريق الإنكار لنبوة موسى عليه الصلاة والسلام، وترك الإيمان به حتى يروا الله؛ لأنهم قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة:٥٥] .

فلما سألوه الرؤية عن طريق ترك الإيمان بموسى عليه السلام حتى يريهم الله نفسه؛ استعظم الله سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه، كما استعظم سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتاباً من السماء من غير أن يكون ذلك مستحيلاً، ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبي الله [صلى الله عليه وسلم] حتى ينزل عليهم كتاباً من السماء .

٨٠- دليل آخر :

ومما يدل على إثبات رؤية الله عزَّ وجل بالأبصار، ما روته الجماعات من الجهات المختلفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تَضَارُوْنَ في رُؤْيَتِه»[(١)] .

والرؤية إذا أطلقت إطلاقاً ومُثِّلت برؤية العيان، لم يكن معناها إلا رؤية العيان .

ورويت الرؤية عن رسول الله ﷺ من طرق مختلفة، عدة رواتها أكثر من عدة خبر الرجم، ومن عدة من روى أن النبي ﷺ قال: « لا وَصِيَّةَ لِوارِثٍ »[(٢)]، ومن عدة رواة المسح على الخفين، ومن عدة رواة قول رسول الله ﷺ: « لا تُنْكَحُ

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة تقدم تخريجه ص (٤٠) .

(٢) وهو حديث صحيح، وقد جاء عن جماعة كثيرة من الصحابة منهم أبو أمامة الباهلي، وعمرو بن خارجة، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم رضي الله عنهم. انظر « الإرواء » رقم (١٦٥٥) .

الَمرْأةُ عَلَى عَمَّتِهَا ولا خَالَتِهَا »[1]، وإذا كان الرجم وما ذكرناه سنناً عند المعتزلة، كانت الرؤية أولى أن تكون سنة؛ لكثرة رواتها ونقلتها، سنةً يرويها خلف عن سلف .

وحديث « أنّى أَرَاهُ »[2] لا حجة فيه؛ لأنه عندما سأل سائل النبي ﷺ عن رؤية الله عز وجل في الدنيا، وقال له: هل رأيت ربك؟ فقال: « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ »؟ لأن العين لا تدرك في الدنيا الأنوار المخلوقة على حقائقها؛ لأن الإنسان لو حدق بنظره إلى عين الشمس فأدام النظر إلى عينها لذهب أكثر نور بصره، فإذا كان الله عز وجل حكم في الدنيا بأن لا تقوم العين بالنظر إلى عين الشمس، فأحرى أن لا يَثْبُتَ البصر للنظر إلى الله عز وجل في الدنيا إلا أن يقويه الله عز وجل، فرؤية الله سبحانه في الدنيا قد اختلف فيها.

وقد روي عن أصحاب رسول الله ﷺ أن الله عز وجل تراه العيون في الآخرة، وما روي عن أحد منهم أن الله عزَّ وجل لا تراه العيون في الآخرة، فلما كانوا على هذا مجمعين وبه قائلين، وإن كانوا في رؤيته تعالى في الدنيا مختلفين[3]، ثبتت الرؤية في الآخرة إجماعاً، وإن كانت في الدنيا مختلفاً فيها، ونحن إنما قصدنا إلى إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة .

على أن هذه الرواية على المعتزلة لا لهم؛ لأنهم ينكرون أن الله نور في الحقيقة. فإذا احتجوا بخبرٍ هم له تاركون وعنه منحرفون، كانوا محجوجين[4] .

---

(١) رواه البخاري رقم (٥١٠٩- ٥١١٠) في النكاح: باب لا تنكح المرأة على عمتها، ومسلم رقم (١٤٠٨) في النكاح: باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها في النكاح، من حديث أبي هريرة ﷺ

(٢) رواه مسلم رقم (١٧٨) في الإيمان: باب قوله عليه السلام: « نور أنى أراه »، والترمذي رقم (٣٢٧٨) في التفسير؛ باب ومن سورة النجم، وأحمد في « المسند » ١٤٧/٥ من حديث أبي هريرة

(٣) انظر كلام الإمام ابن القيم ص(٦٩) الآتي .

(٤) قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ١٦٧/٢:

ولم يأتنا نص جلي بأن النبي ﷺ رأى الله تعالى بعينيه، وهذه المسألة مما يسعُ المرء المسلم في دينه السكوت عنها، فأما رؤية المنام فجاءت من وجوه متعددة مستفيضة، وأما رؤية الله عياناً في الآخرة، فأمر متيقن تواترت به النصوص، جمع أحاديثها الدار قطني والبيهقي وغيرهما .

٨١- دليل آخر :

ومما يدل على رؤية الله عز وجل بالأبصار؛ أنه ليس موجود إلا وجائز أن يريناه الله عز وجل، وإنما لا يجوز أن يُرى المعدوم، فلما كان الله عز وجل موجوداً مثبتاً كان غير مستحيل أن يرينا نفسه عزَّ وجلّ .

وإنما أراد مَنْ نفى رؤية الله عز وجل بالأبصار التعطيل، فلما لم يمكنهم أن يظهروا التعطيل صراحاً أظهروا ما يؤول بهم إلى التعطيل والجحود، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٨٢- دليل آخر :

ومما يدل على رؤية الله سبحانه بالأبصار، أن الله عز وجل يرى الأشياء، وإذا كان للأشياء رائياً فلا يرى الأشياء من لا يرى نفسه، وإذا كان لنفسه رائياً فجائز أن يرينا نفسه، وذلك أن من لا يعلم نفسه لا يعلم شيئاً، فلما كان الله عز وجل عالماً بالأشياء كان عالماً بنفسه، فلذلك من لا يرى نفسه لا يرى الأشياء، ولما كان الله عز وجل رائياً للأشياء كان رائياً لنفسه، وإذا كان رائياً لها فجائز أن يرينا نفسه، كما أنه لما كان عالماً بنفسه جاز أن يعلمناها، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] فأخبر أنه سمع كلامهما ورآهما .

ومن زعم أن الله عز وجل لا يجوز أن يُرى بالأبصار يلزمه أنْ لا يجوز أن يكون الله عز وجل رائياً، ولا عالماً، ولا قادراً؛ لأن العالم القادر الرائي جائز أن يُرَى .

٨٣- مسألة :

فإن قال قائل: قول النبي ﷺ: « تَرَوْنَ ربَّكُم »[1] يعني تعلمون ربكم اضطراراً .

---

(١) تقدم تخريجه ص(٤٠) .

قيل له: إن النبي ﷺ قال لأصحابه هذا على سبيل البشارة، فقال: « فَكَيْفَ بِكُمْ إذَا رَأَيْتُم الله عَزَّ وَجَلَّ »[1]، ولا يجوز أن يبشرهم بأمر يَشْرَكهم فيه الكفار، على أن النبي ﷺ قال: « تَرَوْنَ رَبَّكُمْ » وليس يعني رؤيةً دون رؤية، بل ذلك عام في رؤية العين ورؤية القلب.

٨٤- دليل آخر:

إن المسلمين اتفقوا على أن الجنة « فِيهَا مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »[2] من العيش السليم والنعيم المقيم، وليس نعيم في الجنة أفضل من رؤية الله عز وجل بالأبصار، وأكثر مَن عَبَدَ الله عز وجل عَبَدَه للنظر إلى وجهه الكريم ـ أرانا الله إياه بفضله ـ فإذا لم يكن بعد رؤية الله أفضل من رؤية نبيه ﷺ، وكانت رؤية نبي الله ﷺ أفضل لذات الجنة، كانت رؤية الله عز وجل أفضل من رؤية نبيه ﷺ، وإذا كان ذلك كذلك لم يحرم الله أنبياءَه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين والصديقين النظرَ إلى وجهه عز وجل.

وذلك أن الرؤية لا تؤثر في المرئي؛ لأن رؤية الرائي تقوم به، فإذا كان هذا هكذا، وكانت الرؤية غير مؤثرة في المرئي لم توجب تشبيهاً ولا انقلاباً عن حقيقة، ولم يستحل على الله عز وجل أن يُريَ عباده المؤمنين نفسه في جنانه.

* * *

(١) تقدم تخريجه ص(٤٩) رقم (٤).
(٢) تقدم تخريجه ص(٥٩) رقم (١).

٨٥- باب في الرؤية :

احتجت المعتزلة في أن الله عز وجل لا يُرى بالأبصار بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣] وقالوا: فلما عطف الله عزَّ وجل بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ على قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ على العموم أنه يدركها في الدنيا والآخرة، وأنه يراها في الدنيا والآخرة، كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ دليلاً على أنه لا تراه الأبصار في الدنيا والآخرة، وكان في العموم قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر .

قيل لهم: فيجب إذا كان عموم القولين واحداً، وكانت الأبصار أبصار العيون وأبصار القلوب؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥] فأراد أبصار القلوب وهي التي يفضل بها المؤمنون الكافرين .

ويقول أهل اللغة: فلان بصير بصناعته، يريدون بصر العلم، ويقولون: قد أبصرته بقلبي، كما يقولون قد أبصرته بعيني، فإذا كان البصر بصر العيون وبصر القلوب ثم أوجبوا علينا أن يكون قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر، وجب عليهم بحجتهم أن الله عز وجل لا يُدرك بأبصار العيون ولا بأبصار القلوب؛ لأن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وإذا لم يكن عندهم هكذا فقد وجب أن يكون قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أخص من قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وانتقض احتجاجهم .

وقيل لهم: إنكم زعمتم أنه لو كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ خاصاً في وقت دون وقت لكان قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ خاصاً في وقت دون

وقت، وكان قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[الشورى:١١]، وقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس:٤٤] في وقت دون وقت، فإن جعلتم قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ خاصاً رجع احتجاجكم عليكم، وقيل لكم: إذا كان قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ خاصاً ولم يجب خصوص هذه الآيات، فلم أنكرتم أن يكون قوله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ إنما أراد في الدنيا دون الآخرة؟ كما أن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أراد بعض الأبصار دون بعض، ولا يوجب ذلك تخصيص هذه الآيات التي عارضتمونا بها.

فإن قالوا: قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يوجب أن لا يدرك بها في الدنيا والآخرة، وليس ينفي ذلك أن نراه بقلوبنا، ونبصره بها، ولا ندركه بها.

قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون لا تدركه بأبصار العيون، ولا يوجب إذا لم ندركه بها أن لا نراه ونبصره بها، فرؤيتنا له بالعيون وإبصارنا له بها ليس بإدراك له بها، كما أن إبصارنا له بالقلوب ورؤيتنا له بها ليس بإدراك له بها[1].

فإن قالوا: رؤية البصر هي إدراك البصر.

قيل لهم: ما الفرق بينكم وبين من قال: إن رؤية القلب وإبصاره هو إدراكه وإحاطته، فإذا كان علم القلب بالله عز وجل وإبصار القلب له ورؤيته إياه ليس بإحاطة ولا إدراك، فما أنكرتم أن تكون رؤية العيون وإبصارها لله عز وجل ليس بإحاطة ولا إدراك.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في « الوابل الصيب » ص(١٠٣) بتحقيقنا طبعة دار البيان بدمشق: « فالرب تبارك وتعالى يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وإن رأته، فالإدراك أمر وراء الرؤية، وهذه الشمس - ولله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كما هي عليه، ولا قريباً من ذلك، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أفتدركها؟ قال: لا، قال: فالله تعالى أعظم وأجل ». اهـ.

٨٦- جواب :

ويقال لهم: إذا كان قول الله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في العموم كقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لأن أحد الكلامين معطوف على الآخر، فخبِّرونا أليس الأبصار والعيون لا تدركه رؤيةً ولا لمساً ولا ذوقاً ولا على وجه من الوجوه؟ .

فمن قولهم: نعم، فيقال لهم: أخبرونا عن قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أتزعمون أنه يدركها لمساً وذوقاً بأن يلمسها؟ فمن قولهم: لا، فيقال لهم: فقد انتقض قولكم: إن قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ في العموم كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ .

* * *

٨٧- مسألة :

إذا قال قائل منهم: إن البصر في الحقيقة هو بصر العين لا بصر القلب.

قيل له: ولم زعمت هذا؟ وقد سمى أهل اللغة بصر القلب بصراً، كما سموا بصر العين بصراً؟ وإن جاز لك ما قلته جاز لغيركم أن يزعم أن البصر في الحقيقة هو بصر القلب دون العين، وإذا لم يجز هذا فقد وجب أن البصر بصر العين وبصر القلب .

٨٨- جواب :

ويقال لهم: حدثونا عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ما معناه؟

فإن قالوا: معنى ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أنه يعلمها .

قيل لهم: وإذا كان أحد الكلامين معطوفاً على الآخر، وكان قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ معناه يعلمها، فقد وجب أن يكون قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ لا تعلمه، وهذا نفي للعلم لا لرؤية الأبصار.

فإن قالوا: معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ معناه يعلمها، فقد وجب أن يكون قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أنه يراها رؤيةً ليس معناها العلم.

قيل لهم: فالأبصار التي في العيون يجوز أن ترى ؟

فإن قالوا: نعم، نقضوا قولهم: إنا لا نرى بالبصر إلا من جنس ما نرى الساعة، فإن جاز أن يرى الله ما ليس من جنس المرئيات وهو الإبصار التي في العين، فلِم لا يجوز أن يرى نفسه، وإن لم يكن من جنس المرئيات؟ ولم لا يجوز أن يرينا نفسه وإن لم يكن من جنس المرئيات ؟

ويقال لهم: حدثونا إذا رأينا شيئاً فببصرنا نراه، أو إنما يراه الرائي دون البصر ؟

فمن قولهم: إنه محال أن يرى البصر الذي في العين. فيقال لهم: الآية تنفي أن تراه الأبصار، ولا تنفي أن يراه المبصرون، وإنما قال الله عز وجل: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فهذا لا يدل على أن المبصرين لا يرونه على ظاهر الآية.

* * *

الباب الرَّابع

الكلام في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق[1]

٨٩- إن سأل سائل عن الدليل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

قيل له: الدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[الروم:٢٥] وأمر الله هو كلامه وقوله، فلما أمَرَهما بالقِيام فقامتا لا تهويان؟ كان قيامهما بأمره .

وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، فالخلق جميع ما خلق داخل فيه؛ لأن الكلام إذا كان لفظه لفظاً عاماً فحقيقته أنه عام، ولا يجوز لنا أن نزيل الكلام عن حقيقته بغير حجة ولا برهان، فلما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ كان هذا في جميع الخلق، ولما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ذكر أمراً غيرَ جميع الخلق، فدل ما وصفنا على أن أمر الله غير مخلوق .

فإن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] .

قيل له: نحن نخص القرآن بالإجماع وبالدليل، فلما ذكر الله عز وجل نفسه وملائكته ولم يدخل في ذكر الملائكة جبريل وميكال إن كانا من الملائكة، ثم ذكرهما بعد ذلك، كأنه قال: الملائكة إلا جبريل وميكال، ثم ذكرهما بعد ذكر الملائكة فقال: وجبريل وميكال، ولما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ، ولم يخص قوله: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ دليل، كان قوله:﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ في

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(١٣٥ – ١٦٢) .

جميع الخلق، ثم بعد ذكره الخلق والأمر، فأبان الأمرَ من الخلـق، وأمـرُ الله كلامـه، وهذا يوجب أن كلام الله غير مخلوق .

وقال عز وجل: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم:٤] يعـني مـن قبـل أن يخلق الخلق ومن بعد ذلك، وهذا يوجب أن الأمر غير مخلوق .

* * *

٩٠- دليل آخر :

ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق؛ قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠] فلو كان القرآن مخلوقاً لوجـب أن يكون مقولاً له: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ولو كان الله عز وجل قائلاً للقول: ﴿ كُن ﴾ لكان للقول قولاً، وهذا يوجب أحد أمرين :

إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق .

أو يكون كل قول واقع بقـول لا إلى غايـة[1]، وذلـك محـال، وإذا اسـتحال ذلك؛ صح وثبت أن لله عز وجل قولاً غير مخلوق .

* * *

٩١- سؤال :

فإن قال قائل: معنى قول الله: ﴿ أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] إنمـا بكونه فيكون .

قيل: الظاهر أنْ يقول له، ولا يجوز أن يكون قول الله للأشياء كلـها كـوني هو الأشياء؛ لأن هذا يوجب أن تكون الأشياء كلها كلام الله عز وجل، ومن قال ذلك أعظم الفِرية؛ لأنه يلزمه أن يكون كل شيء في العـالم مـن إنسـان

---

(١) ويسمى التسلسل.

وفرس وحمار وغير ذلك كلام الله، وفي هذا ما فيه .

فلما استحال ذلك صح أن قول الله للأشياء كوني غيرها، وإذا كان غير المخلوقات فقد خرج كلام الله عزّ وجلّ عن أن يكون مخلوقاً، ويلزم من يثبت كلام الله مخلوقاً أن يثبت [أن] الله غير متكلم ولا قائل، وذلك فاسد، كما يفسد أن يكون علم الله مخلوقاً وأن يكون الله غير عالم، فلما كان الله عز وجل لم يزل عالماً، إذ لم يجز أن يكون لم يزل بخلاف العلم موصوفاً، استحال أن يكون لم يزل بخلاف الكلام موصوفاً؛ لأن خلاف الكلام الذي لا يكون معه كلامٌ سكوتٌ أو آفة، كما أنّ خلاف العلم الذي لا يكون معه علم جهلٌ أو شك، أو آفة، ويستحيل أن يُوصف ربنا عزّ وجلّ بخلاف العلم، ولذلك يستحيل أن يوصف بخلاف الكلام من السكوت والآفات، فوجب لذلك أن يكون لم يزل متكلماً، كما وجب أن يكون لم يزل عالماً .

* * *

٩٢- دليل آخر :

وقال الله عز وجل: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي ﴾ [الكهف:١٠٩] فلو كانت البحار مداداً كتبت لنفدت البحار وتكسرت الأقلام، ولم يلحق الفناءُ كلمات ربي، كما لا يلحق الفناء علمَ الله عز وجل، ومن فني كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السكوت، فلما لم يجز ذلك على ربنا عزّ وجل صح أنه لم يزل متكلماً؛ لأنه لو لم يكن متكلماً، [لـ]وجب [عليه] السكوت والآفات، تعالى ربنا عن قول الجهمية علواً كبيراً .

* * *

٩٣- فصل :

وزعمت الجهمية كما زعمت النصارى؛ لأن النصارى زعمت أن كلمة الله حواها بطن مريم، وزادت الجهمية عليهم؛ فزعمت أن كلام الله مخلوق

حل في شجرة، وكانت الشجرة حاوية له؛ فلزمهم أن تكون الشجرة بذلك الكلام متكلمةً، ووجب عليهم أن مخلوقاً من المخلوقين كَلّم موسى صلى الله عليه وسلم، وأن الشجرة قالت: يا موسى إنَّني أنَا الله لا إله إلا أنَا فاعبدني، فلو كان كلام الله مخلوقاً في شجرة، لكان المخلوق قال: يا موسى إنَّنِي أنَا الله لا إله إلا أنا فَاعبدني، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣] .

وكلام الله من الله عز وجل، لا يجوز أن يكون كلامه الذي هو منه مخلوقاً في شجرة مخلوقة، كما لا يجوز أن يكون علمه الذي هو منه مخلوقاً في غيره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

* * *

٩٤- جواب :

ويقال لهم: كما لا يجوز أن يخلق الله عز وجل إرادته في بعض المخلوقات، كذلك لا يجوز أن يخلق كلامه في بعض المخلوقات، ولو كانت إرادة الله مخلوقةً في بعض المخلوقات، لكان ذلك المخلوق لله هو المريد بها، وذلك يستحيل .

وكذلك يستحيل أن يخلق الله كلامه في مخلوق؛ لأن هذا يوجب أن ذلك المخلوق متكلم به، ويستحيل أن يكون كلام الله عز وجل كلاماً للمخلوق .

* * *

٩٥- دليل آخر :

ومما يبطل قولهم أنّ الله عز وجل قال مخبراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥] يعني القرآن، فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولاً للبشر، وهذا ما أنكره الله على المشركين .

وأيضاً فلو لم يكن الله متكلماً حتى خلق الخلق ثم تكلم بعد ذلك، لكانت الأشياء قد كانت لا عن أمره، ولا عن قوله، ولم يكن قائلاً لها: « كوني »، وهذا رد للقرآن، وخروج عما عليه جمهور أهل الإسلام.

* * *

٩٦- فصل:

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن قول الجهمية: إن كلام الله مخلوق، يلزمهم به أن يكون الله عز وجل لم يزل كالأصنام التي لا تنطق ولا تتكلم، لو كان لم يزل غير متكلم؛ لأن الله عز وجل يخبر عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه لما قالوا له: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] فاحتج عليهم بأن الأصنام إذا لم تكن ناطقة متكلمة لم تكن آلهة، وأن الإله لا يكون غير ناطق ولا متكلم، فلما كانت الأصنام التي لا يستحيل أن يحييها الله وينطقها لا تكون آلهة، فكيف يجوز أن يكون من يستحيل عليه الكلام في قدمه إلهاً؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا لم يجز أن يكون الله سبحانه في قِدَمِه بمرتبة دون مرتبة الأصنام التي لا تنطق، فقد وجب أن يكون الله لم يزل متكلماً.

* * *

٩٧- دليل آخر:

وقد قال الله تعالى مخبراً عن نفسه أنّه يقول: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وجاءت الرواية[1] أنه يقول هذا القول فلا يَرُدُّ عليه أحد شيئاً، فيقول:

---

(١) هو جزء من حديث الصور الطويل الذي رواه عبد بن حميد، والطبراني، وأبو يعلى والطبراني في المطولات. والبيهقي في « البعث » من حديث أبي هريرة ﷺ، أن جميع الأحياء إذا ماتوا بعد النفخة الأولى ولم يبق إلا الله عز وجل قال الله سبحانه وتعالى: أنا الجبار، أنا الجبار، ثلاثاً. ثم يهتف بصوته: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات، =

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، فإذا كان عزّ وجلّ قائلاً مع فناء الأشياء إذ لا إنسان ولا ملك ولا حي ولا جان ولا شجر ولا مدر، فقد صح أن كلام الله عز وجل خارج عن الخلق؛ لأنه يوجد ولا شيء من المخلوقات موجود .

* * *

٩٨- دليل آخر :

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] والتكليم هو المشافهة بالكلام، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالّاً في غيره، مخلوقاً في شيء سواه، كما لا يجوز ذلك في العلم .

* * *

٩٩- دليل آخر :

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص]، فكيف يكون القرآن مخلوقاً وأسماء الله في القرآن؟ هذا يوجب أن تكون أسماء الله مخلوقة، ولو كانت أسماؤه مخلوقة لكانت وحدانيته مخلوقة، وكذلك علمه وقدرته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

* * *

١٠٠- دليل آخر :

وقد قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٧٨] ولا يقال لمخلوق: تبارك فدل

= فلا يجيبه أحد، ثم يقول لنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وهو حديث منكر كما في « ضعيف الترغيب » (٢٢٢٤). وانظر « فتح الباري » ١١/٣٦٧- ٣٧١ في الرقاق: باب نفخ الصور، و« تفسير ابن كثير» ٢/١٤٦و١٤٩. وروى البخاري ومسلم في صحيحهما، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أين ملوك الأرض » وانظر الفتح ١٣/٣٦٧ .

هذا على أن أسماء الله غير مخلوقة، وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] فكما لا يجوز أن يكون وجه ربِّنا مخلوقاً، فكذلك لا يجوز أن تكون أسماؤه مخلوقة .

* * *

١٠١- دليل آخر :

وقد قال الله عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨] ولا بد أن يكون شهد بهذه الشهادة، وسمعها من نفسه؛ لأنه إن كان سمعها من مخلوق فليست شهادة له، وإذا كانت شهادة له وقد شهد بها فلا يخلو أن يكون شهد بها قبل كون المخلوقات، أو بعد كون المخلوقات.

فإن كان شهد بها بعد كون المخلوقات، فلم تكن شهادة لنفسه بالألوهية قبل الخلق[1]، و كيف يكون ذلك كذلك؟ وهذا يوجب أن التوحيد لم يكن يشهد به شاهد قبل الخلق، ولو استحالت الشهادة بالوحدانية قبل كون الخلق لاستحال إثبات التوحيد ووجوده، وأن يكون واحداً قبل الخلق؛ لأن ما تستحيل الشهادة عليه مستحيل، وإن كانت شهادته لنفسه بالتوحيد قبل الخلق [مستحيلة] فقد بطل أن يكون كلام الله عز وجل مخلوقاً لأن كلامه شهادته .

* * *

١٠٢- دليل آخر :

ومما يدل على بطلان قول الجهمية، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق: أن أسماء الله من القرآن، وقد قال عز وجل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:١-٢] ولا يجوز أن يكون اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى مخلوقاً، كما لا يجوز أن يكون جَدُّ رَبِّنا مخلوقاً، قال الله تعالى في سورة

(١) في نسخة: فلم تسبق شهادته لنفسه بالإلهية الخلق .

الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن:٣] وكما لا يجوز أن تكون عظمته مخلوقة، كذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً.

* * *

١٠٣- دليل آخر:

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١] فلو كان كلام الله لا يوجد إلا مخلوقاً في شيء مخلوق. لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى؛ لأن الكلام قد سمعه جميع الخلق ووجدوه - بزعم الجهميّة - مخلوقاً في غير الله عز وجل وهذا يوجب إسقاط مرتبة النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

ويجب عليهم إذا زعموا أن كلام الله لموسى خلقه في شجرة، أن يكون من سمع كلام الله عز وجل من مَلَك أو نبي أتى به من عند الله، أفضل مرتبة من سماع الكلام من موسى؛ لأنهم سمعوه من نبي ولم يسمعه موسى من الله عز وجل، وإنما سمعه من شجرة، وأن يزعموا أن اليهودي إذا سمع كلامَ الله من النبي عليه الصلاة والسلام أفضل مرتبة في هذا المعنى من موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهودي سمعه من نبي من أنبياء الله، وموسى سمعه مخلوقاً في شجرة، ولو كان مخلوقاً في شجرة لم يكن مُكَلِّماً لموسى من وراء حجاب؛ لأن مَنْ حضر الشجرة من الجن والإنس قد سمعوا الكلام من ذلك المكان، وكان سبيل موسى وغيره في ذلك سواء في أنه ليس كلام الله له من وراء حجاب.

* * *

١٠٤- جواب :

ثم يقال لهم: إذا زعمتم أن معنى أن الله عز وجل كَلّم موسى أنه خلق كلاماً كَلّمه به في الشجرة، وقد خلق الله عندكم في الذراع كلاماً؛ لأن الذراع قالت لرسول الله ﷺ: لا تَأْكُلْنِي فَإِنِّي مَسْمُومَةٌ[1] . فلزمكم أن ذلك الكلام الذي سمعه النبي ﷺ كلامُ الله عز وجل، فإن استحال أن يكون الله تكلم بذلك الكلام المخلوق فما أنكرتم مِنْ أنه مستحيل أن يخلق الله عز وجل كلامه في شجرة؛ لأن كلام المخلوق لا يكون كلاماً لله، فإن كان كلام لله، وكان معنى أن الله تكلم عندكم أنه خلق الكلام؛ فيلزمكم أن يكون الله متكلماً بالكلام الذي خلقه في الذراع .

فإن أجابوا إلى ذلك قيل لهم: فالله عز وجل على قولكم، هو القائل: لا تأكلني فإني مسمومة، تعالى الله عن قولكم وافترائكم عليه علواً كبيراً .

وإن قالوا: لا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقاً في ذراع. قيل لهم: وكذلك لا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقاً في شجرة .

* * *

١٠٥- مسألة :

ثم يسألون عن الكلام الذي أنطق الله تعالى به الذئب[2] لما أخبر عن نبوة النبي ﷺ، فيقال لهم: إذا كان الله عز وجل يتكلم بكلام يخلقه في

---

(١) البخاري رقم (٢٦١٧) في الهبة: باب قبول الهدية من المشركين، ومسلم رقم (٢١٩٠) في السلام: باب السم، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) روى البخاري رقم (٢٣٢٤) في الحرث والزراعة: باب استعمال البقر للحراثة، ورقم (٢٤٧١و٣٦٦٣ و٣٦٩٠)، ومسلم رقم (٢٣٨٨) في فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة، قال: آمنت به أنا وأبو بكر وعمر، وأخذ الذئب شاة فتبعها الراعي، فقال له الذئب: من لها يوم السَّبع، يوم لا راعي لها غيري؟ قال: آمنت به أنا وأبو بكر وعمر». قال أبو سلمة: وما هما يومئذ في القوم .

غيره، فما أنكرتم أن يكون الكلام الذي سمعه من الذئب كلاماً لله، ويكون إعجازه يدل على أنه كلام الله تعالى، وفي هذا ما يجب عليهم أن الذئب لم يتكلم به وأنه كلام الله عز وجل؛ لأن كون الكلام من الذئب معجز، كما أن كونه من الشجرة معجز، فإن كان الذئب متكلماً بذلك الكلام المنقول، فما أنكرتم أن الشجرة متكلمة بالكلام إن كان خُلِقَ في شجرة، وأن يكون المخلوق[1] قال: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

١٠٦- جواب:

ثم يقال لهم: إذا كان كلام الله عز وجل مخلوقاً في غيره عندكم، فما يؤمنكم أن يكون كل كلام تسمعونه مخلوقاً في شيء، وهو حق أن يكون كلام الله عز وجل؟

فإن قالوا: لا تكون الشجرة متكلمة؛ لأن المتكلم لا يكون إلا حياً.

قيل لهم: ولا يجوز خَلْقُ الكلام في شجرة؛ لأن من خَلَقَ الكلام فيه لا يكون إلا حياً، فإن جاز أن يُخلَقَ الكلامُ فيما ليس بحيّ، فلِمَ لا يجوز أن يتكلم من ليس بحي؟

ويقال لهم: لم لا قلتم: إنه يقول من ليس بحي، لأنه عز وجل أخبر أن السماوات والأرض: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١].

١٠٧- مسألة:

ثم يقال لهم: أليس قد قال الله عز وجل لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص:٧٨] فلا بد من نعم، ويقال لهم: فإذا كان كلام الله مخلوقاً، وكانت المخلوقات فانيات؛ فيلزمكم إذا أفنى الله عز وجل الأشياء أن تكون

(١) في نسخة: المخلوق فيه.

اللعنة على إبليس قد فنيت، فيكون إبليس غير ملعون، وهذا تَرْكٌ لدين المسلمين، وردٌّ لقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وإذا كانت اللعنة باقية على إبليس إلى يوم الدين - وهو يوم الجزاء، وهو يوم القيامة - لأن الله عز وجل قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يعني يوم الجزاء، ثم هي أبداً في النار، واللعنة كلام الله، وهو قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ فقد وجب أن يكون كلام الله عز وجل لا يجوز عليه الفناء، وأنه غير مخلوق؛ لأن المخلوقات يجوز عليها العدم، فإذا لم يجز ذلك على كلام الله عز وجل فهو غير مخلوق.

١٠٨- الرد :

ثم يقال لهم: إذا كان غضب الله غير مخلوق، وكذلك رضاه وسخطه، فلم لا قلتم: إن كلامه غير مخلوق؟ ومن زعم أن غضب الله مخلوق لزمه أن غضب الله وسخطه على الكافرين يفنى، وأن رضاه عن الملائكة والنبيين يفنى، حتى لا يكون راضياً عن أوليائه ولا ساخطاً عن أعدائه، وهذا هو الخروج عن الإسلام.

* * *

١٠٩- مسألة :

ويقال: خبرونا عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠] أتزعمون أن قوله للشيء: «كن» مخلوقٌ مراد الله[(١)]؟

فإن قالوا: لا، قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون كلام الله الذي هو القرآن غير مخلوق، كما زعمتم أن قول الله للشيء «كن» غير مخلوق.

وإن زعموا أن قول الله للشيء «كن» مخلوق. قيل لهم: فإن زعمتم

(١) مراد: ساقطة من نسخة.

أنه مخلوق مراد لله، فقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

فيلزمكم أن قوله تعالى للشيء « كن » قد قال له: « كن ».

وفي هذا ما يوجب أحد أمرين:

١- إما أن يكون قول الله لغيره « كن » غير مخلوق.

٢- أو يكون لكل قول: قول لا إلى غاية، وذلك محال.

فإن قالوا: إن لله قولاً غير مخلوق. قيل لهم: فما أنكرتم أن تكون إرادة الله للإيمان غير مخلوقة؟

ثم يقال لهم: ما العلة التي إنما قلتم: إن قول الله للشيء « كن » غير مخلوق؟

فإن قالوا: لأن القول لا يقال له « كن » فيقال لهم: القرآن غير مخلوق؛ لأنه قول الله، والله لا يقول لقوله « كن » .

* * *

١١٠- الرد على الجهمية[1] :

ويقال لهم: أليس لم يزل الله عالماً بأوليائه وأعدائه؟ فلا بد من نعم .

قيل لهم: فهل تقولون: إنه لم يزل مريداً للتفرقة بين أوليائه وأعدائه؟

فإن قالوا: نعم، قيل لهم: فإذا كانت إرادة الله لم تزل فهي غير مخلوقة، وإذا كانت إرادته غير مخلوقة فلم لا قلتم: إن كلامه غير مخلوق؟

فإن قالوا: لا نقول لم يزل مريداً للتفريق بين أوليائه وأعدائه، فقد زعموا أن الله عز وجل لا يريد التفرقة بين أوليائه وأعدائه، ونسبوه سبحانه إلى النقص، تعالى الله عن قول القدرية علواً كبيراً .

---

(١) في نسخة: « مسألة على الجهمية » .

١١١- جواب :

ويقال لهم: إن الشيء المخلوق إما أن يكون بدناً من الأبدان، شخصاً من الأشخاص؛ أو يكون نعتاً من نعوت الأشخاص، فلا يجوز أن يكون كلام الله شخصاً؛ لأن الأشخاص يجوز عليها الأكل والشرب والنكاح، ولا يجوز ذلك على كلام الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون كلام الله نعتاً لشخص مخلوق؛ لأن النعوت لا تبقى طرفة عين؛ لأنها لا تحتمل البقاء، وهذا يوجب أن يكون كلام الله قد فني ومضى، فلما لم يجز أن يكون شخصاً ولا نعتاً لشخص لم يجز أن يكون مخلوقاً .

على أن الأشخاص يجوز أن تموت، فمن يثبت كلام الله شخصاً مخلوقاً لزمه أن يجوز الموت على كلام الله عزّ وجلّ، وذلك مما لا يجوز .

وأيضا فلا يجوز أن يكون كلام الله مخلوقاً في شخص مخلوق، كما لا يجوز أن يكون نعتاً لشخص مخلوق، ولو كان مخلوقاً في شخص، وكلام الإنسان مفعولاً فيه، كما لا يمكن التفريق بين كلام الله وكلام المخلوق إذا كانا مخلوقين في شخص مخلوق، كما لا يجوز أن يكون علمه مخلوقاً في شخص مخلوق .

١١٢- جواب :

ويقال لهم أيضاً: لو كان كلام الله مخلوقاً لكان جسماً أو نعتاً لجسم، ولو كان جسماً لجاز أن يكون متكلماً، والله قادر على قلبهما، وفي هذا ما يلزمهم، ويجب عليهم أن يجوزوا أن يقلب الله القرآن إنساناً أو جنياً أو شيطاناً، تعالى الله عز وجل أن يكون كلامه كذلك .

و لو كان نعتاً لجسم كالنعوت؛ فالله قادر على أن يجعلها أجساماً[1]، فكان يجب على الجهمية أن يجوزوا أن يجعل الله القرآن جسماً متجسداً يأكل ويشرب، وأن يجعله إنساناً ويميته، وهذا ما لا يجوز على كلام الله، تعالى عن ذلك .

---

(١) في نسخة: « إنساناً » .

البَابُ الخامسُ
ما ذكر من الرواية في القرآن

قال أبو بكر: أتيت أنا والعباس بن عبد العظيم العنبري أبا عبد الله، فسأل العباسُ بن عبد العظيم أبا عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله ورضي عنه، فقال له: قومٌ هاهنا قد أحدثوا يقولون: القرآن لا مخلوق ولا غير مخلوق، هؤلاء أضر من الجهمية على الناس، ويلكم فإن لم تقولوا: ليس بمخلوق، فقولوا: مخلوق.

قال أبو عبد الله: هؤلاء قوم سوء.

فقال العباس: ما تقول يا أبا عبد الله؟

فقال: الذي أعتقد وأذهب إليه، ولا أشك فيه، أنَّ القرآن غير مخلوق، ثم قال: سبحان الله ومن شكَّ في هذا؟!

ثم تكلم أبو عبد الله مستعظماً للشك في ذلك، فقال: سبحان الله أفي هذا شك؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[الأعراف:٥٤]. وقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ [الرحمن:١-٣] ففرق بين الإنسان وبين القرآن، فقال: علَّمَ، خَلَقَ، فجعل يعيدها: عَلَّمَ، خَلَقَ، أي فَرَّقَ بينهما.

قال أبو عبد الله: القرآن [من] علم الله، ألا تراه يقول: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

والقرآن فيه أسماء الله عز وجل، أي شيء يقولون؟ ألا يقولون: إن أسماء الله غير مخلوقة، لم يزل الله قديراً عليماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً، لسنا نشك أن أسماء الله عز وجل غير مخلوقة، لسنا نشك أن علم الله عز وجل غير مخلوق، فالقرآن من علم الله وفيه أسماء الله، فلا نشك أنه غير مخلوق، وهو كلام الله عز وجل، ولم يزل الله به متكلماً.

ثم قال: وأي كفر من هذا؟ أو أي كفر أشرُّ من هذا؟ إذا زعموا أن القرآن مخلوق، فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة، وأن علم الله مخلوق، ولكن الناس يتهاونون بهذا ويقولون، إنما يقولون القرآن مخلوق ويتهاونون به ويظنون أنه هين، ولا يدرون ما فيه وهو الكفر، وأنا أكره أن أبوح بهذا لكل أحد، وهم يسألون، وأنا أكره الكلام في هذا، فبلغني أنهم يدّعون أني أمسك[1].

فقلت له: فمن قال القرآن مخلوق، ولا يقول إن أسماء الله مخلوقة ولا علمه، لم يزد على هذا، أقول: هو كافر؟

فقال: هكذا هو عندنا.

ثم قال أبو عبد الله: نحن لا نحتاج أن نشك في هذا القرآن عندنا فيه أسماء الله وهو من علم الله، فمن قال لنا: إنه مخلوق، فهو عندنا كافر.

---

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٤٣٢:
كان الإمام أحمد يَسُدُّ الكلام في هذا الباب، ولا يجوزه، وكذلك كان يبدع من يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، ويضلل من يقول: لفظي بالقرآن قديم، ويكفر من يقول: القرآن مخلوق، بل يقول: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وينهى عن الخوض في مسألة اللفظ، ولا ريب أن تلفظنا بالقرآن من كسبنا، والقرآن الملفوظ المتلو كلام الله تعالى غير مخلوق، والتلاوة والتلفظ والكتابة والصوت به من أفعالنا، وهي مخلوقه، والله أعلم.

فجعلت أردِّدُ عليه، فقال لي العباس - وهو يسمع -: سبحان الله أما يكفيك دون هذا؟ فقال أبو عبد الله: بلى .

* * *

١١٤- وذكر الحسين بن عبد الأول، قال: سمعت وكيعاً يقول: من قال: القرآن مخلوق، فهو مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل .

* * *

١١٥- وذكر محمد بن الصباح البزّار، قال: حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت ابن المبارك يقول: إنا نستطيع أن نحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية[١] .

قال محمد: نقول: نخاف أن نكفر ولا نعلم .

* * *

١١٦- وذكر هارون بن إسحاق الهمداني عن أبي نعيم، عن سليمان بن عيسى القاري، عن سفيان الثوري، قال: قال لي حماد بن أبي سليمان: بلِّغ أبا حنيفة المشرك أني منه بريء[٢] .

قال سليمان: ثم قال سفيان؛ لأنه كان يقول القرآن مخلوق .

١١٧- وذكر سفيان بن وكيع قال: سمعت عمر بن حماد بن أبي حنيفة قال: أخبرني أبي قال: الكلام الذي استتاب منه[٣] ابن أبي ليلى أبا حنيفة هو قوله: القرآن مخلوق، قال: فتاب منه وطاف به في الخلق، قال أبي: فقلت له: كيف صرت إلى هذا؟ قال: خفت والله أن

---

(١) رواه أبو داود في « مسائله » قال: حدثنا الحسن بن الصباح، قال: حدثنا علي بن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك. فذكره : « عقائد السلف » ص(١١٠) و« الرد على الجهمية » ص(٣٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في « خلق الأفعال» « عقائد السلف » ص(١١٧) من غير أن يسمي أبا حنيفة .

(٣) في الأصول: فيه .

يقدم عليٌّ فأعطيته التقية .

* * *

١١٨- وذكر هارون بن إسحاق قال: سمعت إسماعيل بن أبي الحكم يذكر عن عمر بن عبيد الطنافسي؛ أن حماد - يعني ابن أبي سليمان - بعث إلى أبي حنيفة: إني بريء مما تقول إلا أن تتوب، وكان عنده ابن أبي غنية، قال: فقال: أخبَرني جارك أن أبا حنيفة دعاه إلى ما استتيب منه بعد ما استتيب(١) .

* * *

١١٩- وذُكر عن أبي يوسف قال: ناظرت أبا حنيفة شهرين حتى رجع عن خلق القرآن .

* * *

١٢٠- وقال سليمان بن حرب: القرآن غير مخلوق، وأخذته من كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧]، وكلام الله ونظره واحد، يعني غير مخلوق .

* * *

١٢١- وذكر الحسين بن عبد الأول، قال: حدثنا محمد بن الحسن بن

---

(١) انظر الخبر السابق رقم (١١٦)، ولعل الذي روَّج لهذا الكلام: هو أن عمر بن حماد بن أبي حنيفة قد قال هذا القول، ونسبه إلى آبائه في عبارة عامة، فيروى أنه قال: القرآن مخلوق، وهو رأيي ورأي آبائي، لكن رده بشر بن الوليد وقال: أما رأيك فنعم، وأما رأي آبائك فلا. ولقد كان المعتزلة الذين اعتنقوا هذا المذهب يروجون لذلك بأن ينحلوه رجالاً ذوي مكانة وعلم وفقه كأبي حنيفة. انظر كتاب «أبو حنيفة» لمحمد أبي زهرة ص(٢٠١) وما بعدها، و«الرد على الجهمية» ص(٣٧٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» ص(١٤٦ و٢٠١ و٢١٢) طبعة دار البيان بدمشق .

أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس الملائي، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ كَلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلى سَائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ الله عَلى خَلْقِهِ»(١).

فهذا يثبت أن القرآن كلام الله عز وجل، وما كان كلاماً لله عز وجل لم يكن خلقاً لله، وقد بيّن الله أن القرآن كلامه بقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] ودل على ذلك في مواضع من كتابه العزيز، وقد قال الله تعالى مخبراً: أن الله كلم موسى تكليماً.

١٢٢- وروى وكيع عن الأعمش، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»(٢).

١٢٣- ومما يدل أن الله عز وجل متكلم، وأن له كلاماً، ما رواه عفان، قال: حدثنا حماد بن سلمة: عن الأشعث الحُدَّاني عن شهر بن حوشب، قال: «فَضْلُ كلام الله عَزَّ وَجَلَّ على سَائِرِ الكلام كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ»(٣).

١٢٤- وروى يعلى بن المنهال السعدي، قال: حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي، قال: حدثنا الجراح بن الضحاك الكندي، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُكُم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ»(٤)، وقال:

---

(١) الترمذي رقم(٢٩٢٧) في ثواب القرآن: باب رقم(٢٥)، والدارمي رقم(٣٣٥٩)، قال الألباني في «تخريج المشكاة» رقم(٢١٣٦): إسناده ضعيف جداً، وقال الذهبي: حسنه الترمذي فلم يحسن. اهـ. انظر «الفتح» ٩/٤٣٤-٤٣٥.

(٢) البخاري رقم (١٤١٣) في الزكاة: باب الصدقة بل الرد، وفي كتب أخرى، ومسلم رقم (١٠١٦) فيه: باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.

(٣) رواه الدارمي رقم (٣٣٦٠) في فضائل القرآن: باب فضل كلام الله على سائر الكلام، فيه ضعف وانقطاع. انظر «الفتح» ٩/٦٦.

(٤) البخاري رقم (٥٠٢٧) في فضائل القرآن: باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، وأبو داود رقم =

« إنَّ فَضْلَ القُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»[1]، وذلك أنه منه.

١٢٥- وذكر سنيد بن داود، قال: حدثنا أبو سفيان، عن معمر، عن قتادة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ الآية [لقمان:٢٧].

١٢٦- وذكر هارون بن معروف، قال: حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يساف، عن فروة بن نوفل، قال: كنت جاراً لخباب بن الأرت، فقال لي: يا هذا تقرب إلى الله عز وجل بما استطعت فإنك لن تتقرب إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه[2].

١٢٧- وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر:٢٨] قال: غير مخلوق[3].

١٢٨- وروى الليث بن يحيى، قال: حدثني إبراهيم بن أبي الأشعث، قال: سمعت مؤمل بن إسماعيل يحدث عن الثوري، قال: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر[4].

١٢٩- وصحت الرواية عن جعفر بن محمد أن القرآن لا خالق ولا مخلوق. وروي ذلك عن عمه زيد بن علي، وعن جده علي بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين[5].

=(١٤٥٢) في الصلاة: باب ثواب قراءة القرآن، والترمذي رقم (٢٩٠٩) في ثواب القرآن: باب ما جاء في تعليم القرآن، والدارمي رقم (٣٣٤١) في فضائل القرآن: باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه، وابن ماجه رقم (٢١١) في المقدمة: باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، وأحمد في « المسند » ٤١٢/١و٤١٣ و٥٠٠ من حديث عثمان بن عفان ﷺ. انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١١٧٣).

(١) تقدم تخريجه ص (٨٨) رقم (١).

(٢) الدارمي في « الرد على الجهمية » ص(٣١٠)، وأبو نعيم في « الحلية » ٢١٧/٩، والبيهقي في « الشعب » (٢٠٢٠)، وإسناده صحيح.

(٣) اللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة» رقم (٣٥٤ و٣٥٥)، والآجري في «الشريعة» رقم (٦٠).

(٤) أبو نعيم في « الحلية » ٣٠/٧، وهو في « مختصر العلو » (١٢٧)، وإسناده حسن.

(٥) البيهقي في كتاب « الاعتقاد » (٦٥) وإسناده صحيح كما في « مختصر العلو» (١٤٤).

١٣٠- ومن قال: إن القرآن غير مخلوق، وإن من قال بخلقه كافر من العلماء وحملة الآثار ونقلة الأخبار لا يحصون كثرة، منهم: الحمادان، والثوري، وعبد العزيز بن أبي سلمة، ومالك بن أنس، والشافعي وأصحابه، [وأبو حنيفة][1]، وأحمد بن حنبل، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وهشام، وعيسى بن يونس، وحفص بن غياث، وسعد بن عامر، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو بكر بن عياش، ووكيع، وأبو عاصم النبيل، ويعلى بن عبيد، ومحمد بن يوسف، وبشر بن المفضل، وعبد الله بن داود، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، وعلي بن عاصم، وأحمد بن يونس، وأبو نعيم، وقبيصة بن عقبة، وسليمان بن داود، وأبو عبيد القاسم بن سلام، ويزيد بن هارون، وغيرهم.

ولو تتبعنا ذكر من يقول بذلك لطال الكلام بذكرهم، وفيما ذكرنا من ذلك مقنع، والحمد لله رب العالمين[2].

١٣١- وقد احتججنا لصحة قولنا: «إن القرآن غير مخلوق» من كتاب الله عز وجل، وما تضمنه من البرهان، وأَوْضَحه من البيان، ولم نجد أحداً ممن تُحْمَل عنه الآثار، وتُنْقَل عنه الأخبار، ويأتم به المؤتمون من أهل العلم، يقول بخلق القرآن، وإنما قال ذلك رعاع الناس، وجهال من جُهَّالهم لا موقع لقولهم.

والحِجَاجُ الذي قدمناه في ذلك يأتي على كثير من قولهم ودفع باطلهم، والحمد لله على قوة الحق حمداً كثيراً.

---

(١) هذه الزيادة من إحدى النسخ.

(٢) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٢/ ٢٩٠:

ومذهب السلف وأئمة الدين: أن القرآن العظيم المنزل كلام الله تعالى غير مخلوق، ومذهب المعتزلة أنه مخلوق، وأنه كلام الله تعالى على حد قولهم: عيسى كلمة الله، وناقة الله، أي إضافة ملك.

ومذهب داود وطائفة أنه كلام الله، وأنه محدث مع قولهم: بأنه غير مخلوق.

وقال آخرون من الحنابلة وغيرهم: هو كلام الله قديم غير محدث، ولا مخلوق، وقالوا: إذا لم يكن مخلوقاً فهو قديم، ونوزعوا في هذا المعنى، وفي إطلاقه.

وقال آخرون: هو كلام الله مجازاً وهو دال على القرآن القديم القائم بالنفس.

وهنا بحوث وجدال لا نخوض فيها أصلاً، والقول هو ما بدأنا به.

الباب السادس

الكلام على من وقف في القرآن وقال :

لا أقول إنه مخلوق ولا أقول إنه غير مخلوق

١٣٢- جواب :

يقال لهم: لِمَ زعمتم ذلك وقلتموه؟ فإن قالوا: قلنا ذلك؛ لأن الله لم يقل في كتابه: إنه مخلوق، ولا قاله رسول الله ﷺ، ولا أجمع عليه المسلمون، ولم يقل في كتابه إنه غير مخلوق، ولا قال ذلك رسول الله ﷺ، ولا أجمع عليه المسلمون، فوقفنا لذلك، ولم نقل إنه مخلوق، ولا إنه غير مخلوق .

يقال لهم: فهل قال الله عز وجل لكم في كتابه قفوا فيه ولا تقولوا إنه غير مخلوق، و[هل] قال لكم رسول الله ﷺ توقفوا عن أن تقولوا إنه غير مخلوق، وهل أجمع المسلمون على التوقف عن القول إنه غير مخلوق؟

فإن قالوا: نعم، فقد بهُتوا .

وإن قالوا: لا ، قيل لهم: فلا تقفوا عن أن تقولوا غير مخلوق بمثل الحجة التي بها ألزمتم أنفسكم التوقف .

ثم يقال لهم: ولم أبيتم أن يكون في كتاب الله ما يدل على أن القرآن غير مخلوق؟

فإن قالوا: لم نجده .

قيل لهم: ولم زعمتم أنكم إذا لم تجدوه في القرآن فليس موجوداً فيه؟ ثم إنا نوجدهم ذلك، ونتلو عليهم الآيات التي احتججنا بها في كتابنا هـذا، واستدللنا بها على أن القرآن غير مخلوق، كقوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وكقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وكقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]، وسائر ما احتججنا في ذلك من آي القرآن.

ويقال لهم: يلزمكم أن تتوقفوا في كل ما اختلف الناس فيه، ولا تقدموا في ذلك على قول، فإن جاز لكم أن تقولوا ببعض تأويل المسلمين إذا دل على صحتها دليل، فلم لا قلتم إن القرآن غير مخلوق بالحجج التي ذكرناها في كتابنا هذا قبل هذا الموضع[(١)]؟

١٣٣- مسألة :

فإن قال قائل: حدِّثونا، أتقولون: إن كلام[(٢)] الله في اللوح المحفوظ؟

قيل له: كذلك نقول؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، فالقرآن في اللوح المحفوظ.

وهو في صدور الذين أوتوا العلم، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وهو متلو[(٣)] بالألسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة:١٦].

---

(١) انظر هذه الحجج من الفقرة (٨٩) حتى الفقرة (١١٢).

(٢) في نسخة: كتاب.

(٣) في نسخة: يتلى.

والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة؛ محفوظٌ في صدورنا في الحقيقة؛ متلوٌّ بألسنتنا في الحقيقة؛ مسموعٌ لنا في الحقيقة؛ كما قال عز وجل: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦] .

١٣٤- مسألة :

فإن قال: حدِّثونا عن اللفظ بالقرآن كيف تقولون فيه؟

قيل له: القرآن يقرأ في الحقيقة ويتلى، ولا[1] يجوز أن يقال يلفظ به؛ لأن القائل لا يجوز له أن يقول إنه كلام ملفوظ به؛ لأن العرب إذا قال قائلهم: لفظت باللقمة من فيّ معناه: رميت بها، وكلام الله عز وجل لا يقال يلفظ[2] به، وإنما يقال: يقرأ ويتلى ويكتب ويحفظ .

وإنما قال قوم: لفظنا بالقرآن ليُثبتوا أنه مخلوق، ويزينوا بدعتهم، وقولهم بخلقه، ويدلسوا كفرهم على من لم يقف على معناهم، فلما وقفنا على معناهم أنكرنا قولهم، ولا يجوز أن يقال: إن شيئاً من القرآن مخلوق؛ لأن القرآن بكامله غير مخلوق[3] .

١٣٥- مسألة :

إن قال قائل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٢] .

قيل له: الذكر الذي عناه الله عز وجل ليس هو القرآن بل هو كلام الرسول ﷺ ووعظه إياهم، وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

---

(١) في نسخة: فلا .

(٢) في نسخة: ملفوظ .

(٣) قال أحد الأئمة رحمه الله: الصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري .

[الذاريات:٥٥] وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ....﴾ [الطلاق:١٠-١١] فسمى الرسول ذكراً، والرسول محدث .

وأيضاً فإن الله عز وجل قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:٢] يخبر أنه لا يأتيهم ذكر[١] محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، ولم يقل لا يأتيهم ذكر[٢] إلا كان محدثاً، وإذا لم يقل هذا لم يوجب أن يكون القرآن محدثاً .

ولو قال قائل: ما يأتيهم رجل من التميميين يدعوهم إلى الحق إلا أعرضوا عنه، لم يوجب هذا القول أنه لا يأتيهم رجل إلا كان تميمياً، فكذلك القول[٣] فيما سألونا عنه .

* * *

١٣٦- مسألة :

وإن سألونا عن قول الله عز وجل: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزمر:٢٨] .

قيل لهم: الله عز وجل أنزله وليس مخلوقاً .

فإن قالوا: فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد:٢٥] والحديد مخلوق .

قيل لهم: الحديد جسم موات، وليس يجب إذا كان القرآن منزلاً، أن يكون جسماً مواتاً، ولذلك لا يجب إذا كان القرآن منزلاً أن يكون مخلوقاً، وإن كان الحديد مخلوقاً .

---

(١) في نسخة: ما يأتيهم من ذكر.
(٢) في نسخة: الحكم.
(٣) في نسخة: أنزل.

١٣٧- جواب :

ويقال لهم: قد أمرنا الله عز وجل أن نستعيذ به وهو غير مخلوق، وأمر أن نستعيذ بكلمات الله التامات[1]، وإذا لم نؤمر أن نستعيذ بمخلوق من المخلوقات، وأمرنا أن نستعيذ بكلام الله، فقد وجب أن كلام الله غير مخلوق .

* * *

(١) روى مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء: باب التعوذ من سوء القضاء، والترمذي رقم (٣٤٣٣) في الدعوات: باب ما يقول إذا نزل منزلاً، وأحمد في « المسند » ٦/٣٧٧ و٣٧٨ و٤٠٩، والدارمي رقم (٢٦٨٣) في الاستئذان: باب ما يقول إذا نزل منزلاً، من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها، ولفظه: « مَنْ نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » .
وهو قطعة من حديث آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة، قال: « أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضرك شيء » .
رواه مسلم رقم (٢٧٠٩)، وأبو داود رقم (٣٨٩٨)، والترمذي رقم (٣٦٠٠)، وابن ماجه رقم (٣٦٨)، وأحمد في « المسند » ٢/٢٧٥ و٢٩٠، و« الموطأ » ٢/٩٥١ .

الباب السابع

ذكر الاستواء على العرش[1]

١٣٨- إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟

قيل له: نقول: إن الله عز وجل يستوي على عرشه استواءً: يليق به من غير طول الاستقرار، كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] وقد قال الله عز وجل: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠] وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] فكذب [فرعونُ نبيَّ الله] موسى عليه الصلاة والسلام في قوله: إن الله عز وجل فوق السموات. وقال عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]. فالسموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات، وكل ما علا فهو سماءٌ، فالعرش أعلى السموات، وليس إذا قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ـ يعني جميع السموات ـ وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات، ألا أن ترى الله عز وجل ذكر السموات، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] ولم يرد أن القمر يملأهن جميعاً، وأنه فيهن جميعاً، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله عز وجل مستو على العرش الذي هو فوق السموات فلولا أن الله عز وجل على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطّونها إذا دعوا إلى الأرض.

---

(١) انظر في موضوع الصفات: «الأسماء والصفات» للبيهقي، و«التوحيد وصفات الربّ» لإمام الأئمة ابن خزيمة، و«العلو العلي الغفار» للذهبي.

١٣٩- فصل :

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن قول الله عز وجل: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] أنه استولى وملك وقهر[١]، وأن الله عز وجل في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله عز وجل على عرشه - كما قال أهل الحق - وذهبوا في الاستواء إلى القدرة .

ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض لله[٢] سبحانه قادر عليها، وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو عز وجل مستوٍ على الأشياء كلها لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستولٍ عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله عز وجل مستو على الحشوش والأخلية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها[٣] .

---

(١) في نسخة: أنه استوى، أي ملك وقهر .

(٢) في نسخة: والله، وفي أخرى: فالله .

(٣) قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

البيت للأخطل يمدح بشر بن مروان.

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢٦٢/٩: «وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً، فإنه إنما يقال: استولى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه، كاستيلاء بشر على العراق، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً حتى يقال استوى عليه أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية حتى أواهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة، والله أعلم .

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله عز وجل في كل مكان، فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

١٤٠- جواب :

ويقال لهم: إذا لم يكن مستوياً على العرش بمعنى يختص العرش دون غيره، كما قال ذلك أهل العلم ونقلة الآثار وحملة الأخبار، وكان الله عز وجل في كل مكان، فهو تحت الأرض التي السماء فوقها، وإذا كان تحت الأرض والأرض فوقه، والسماء فوق الأرض، ففي هذا ما يلزمكم أن تقولوا: إن الله تحت التحت والأشياء فوقه، وأنه فوق الفوق والأشياء تحته، وفي هذا ما يجب أنه تحت ما هو فوقه وفوق ما هو تحته، وهذا هو المحال المتناقض، تعالى الله عن افترائكم عليه علواً كبيراً .

دليل آخر :

ومما يؤكد أن الله عزّ وجل مستوٍ على عرشه دون الأشياء كلها، ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ .

١٤١- روى عفان قال: ثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا عمرو بن دينار، عن نافع بن جبير، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: « يَنْزِلُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ »[1] .

---

(١) قال في « الإرواء » رقم (٤٥٠): أخرجه الدارمي (١٥٢١)، وابن ماجه (١٣٦٧)، وابن خزيمة في « التوحيد » (٨٨)، وأحمد (٨١/٤)، والآجري في « الشريعة » (٣١٢ و٣١٣) وهذا سند صحيح على شرط مسلم. اهـ. قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » ٣٧٦/١١: هذه الصفات من الاستواء والإتيان والنزول، قد صحت بها النصوص، ونقلها الخلف عن السلف، ولم يتعرضوا لها بردٍ ولا تأويل، بل أنكروا على من تأولها مع اتفاقهم على أنها لا تشبه نعوت المخلوقين، وأن الله ليس كمثله شيء، ولا ينبغي المناظرة ولا التنازع فيها، فإن في ذلك محاولة للرد على الله ورسوله، أو حوماً على التكييف أو التعطيل .

١٤٢- وروى عبد الله بن بكر قال: حدثنا هشام بن أبي عبد الله، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي جعفر، أنه سمع أبا هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وتعالى، فَيَقُولُ: مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضُّرَّ فَأَكْشِفَهُ عَنْهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ»(1).

١٤٣- وروى عبد الله بن بكر السهمي، قال: حدثنا هشام بن أبي عبد الله عن يحيى بن كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، قال: حدثنا عطاء بن يسار، أن رفاعة الجهني حدثه، قال: فكنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ - أَوْ قَالَ ثُلُثَا اللَّيْلِ - نَزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: مَنْ الَّذِي يَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي أُعْطِهِ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ»(2).

١٤٤- دليل آخر :

قال الله عز وجل: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة:٤] فكل ذلك يدل على أنه تعالى في السماء مستوٍ على عرشه، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض، فدل على أنه تعالى منفرد بوحدانيته، مستوٍ على عرشه استواءً منزهاً عن الحلول والاتحاد(3).

---

(1) أحمد ٢/٢٥٨و٥٢١، والطيالسي ص(٣٢٨)، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص(١٢٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٧٦)، وابن حبان (٩١٩) «الإحسان»، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٩٤)، والحارث بن أبي أسامة (٦٤) في العوالي، وهو في «ظلال الجنة» (٤٩٧): صحيح.

(2) أحمد ١٦/٤، والطبراني في «الكبير» (٤٥٥٨)، وهو في «صحيح الترغيب» (١٥٢٣).

(3) انظر «شرح حديث النزول» لشيخ الإسلام رحمه الله، و«العلو العلي الغفار» للذهبي.

١٤٥- دليل آخر :

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر:٢٢] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة:٢١٠] وقال: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم:٨-١٨].

وقال عز وجل لعيسى بن مريم عليه السلام: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] وقال تعالى:﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[النساء: ١٥٧-١٥٨] وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل رفع عيسى إلى السماء.

ومن دعاء أهل الإسلام جميعاً إذا هم رغبوا إلى الله عز وجل في الأمر النازل بهم يقولون جميعاً: يا ساكن السماء، ومن خلفهم جميعاً: لا والذي احتجب بسبع سماوات.

١٤٦- دليل آخر :

وقال الله عز وجل:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[الشورى:٥١] وقد خصت الآية البشرَ دون غيرهم ممن ليس من جنس البشر، ولو كانت الآية عامة للبشر وغيرهم كان أبعد من الشبهة، وإدخال الشك على من يسمع الآية أن يقول: ما كان لأحد أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً، فيرتفع الشك والحيرة من أن يقول: ما كان لجنس من الأجناس أن أكلمه إلا وحياً أو من وراء حجاب أو أرسل رسولاً ترك أجناساً لم يعمهم بالآية، فدل ما ذكرنا على أنه خص البشر دون غيرهم.

١٤٧- دليل آخر :

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[الأنعام:٦٢] وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام:٣٠] وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] وقال عز وجل: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]. كل ذلك يدل على أنه ليس في خلقه، ولا خَلْقُه فيه، وأنه مستوٍ على عرشه بلا كيف ولا استقرار، وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، فلم يثبتوا له في وصفهم حقيقة، ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية؛ إذ كل كلامهم يؤول إلى التعطيل، وجميع أوصافهم تدل على النفي، يريدون بذلك التنزيه، ونفي التشبيه، فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفي والتعطيل .

١٤٨- دليل آخر :

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور:٣٥] فسمى نفسه نوراً، والنور عند الأمة لا يخلو من أن يكون أحد معنيين: إما أن يكون نوراً يسمع أو نوراً يرى، فمن زعم أن الله يسمع ولا يرى فقد أخطأ في نفيه رؤية ربه، وتكذيبه بكتابه، وقول نبيه ﷺ .

وروت العلماء عن عبد الله بن عباس أنه قال: « تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور، وهو فوق ذلك »[1] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية »، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص(٤٢٠) من طريق عاصم بن علي: ثنا أبي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه. وهذا إسناد ضعيف، عطاء كان قد اختلط، وعاصم بن علي و أبوه فيهما ضعف وابنه خير منه. انظر « الأحاديث الصحيحة» رقم (١٧٨٨). ويغني عنه حديث عبد الله بن سلام مرفوعاً: « لا تفكروا في الله، و تفكروا في خلق الله ...» وهو حديث حسن في الشواهد .

١٤٩- دليل آخر :

وروت العلماء عن النبي ﷺ أنه قال: « إن العبد لا تزول قدماه من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن عمله»[(١)].

وروت العلماء أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال: يا رسول الله! إني أريد أن أعتقها في كفَّارة، فهل يجوز عتقها؟ فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: « فمن أنا؟» قالت: أنت رسول الله، فقال النبي ﷺ: « أعتقها فإنها مؤمنة»[(٢)]. وهذا يدل على أن الله عز وجل على عرشه فوق السماء، فوقية لا تزيده قرباً من العرش[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤١٩) باب رقم(١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قال، والخطيب البغدادي في « اقتضاء العلم » رقم (١)، وفي الباب عن ابن مسعود عند الترمذي رقم (٢٤١٨)، وعن معاذ عند الخطيب رقم (٢)، وعن أبي سعيد عند البيهقي في كتاب « البعث والنشور». قال الألباني: وأخرجه الدارمي. انظر « اقتضاء العلم العمل » ص(١٥٩-١٦٠)، و« صحيح الجامع» رقم (٧١٧٦-٧١٧٧). من حديث أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي ﷺ، ولفظه: « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه » .

(٢) رواه الدارمي في « الرد على الجهمية» ص(٩٥)، وإسناده صحيح كما في « مختصر العلو» ص(٨١)، ومسلم رقم (٥٣٧) في الصلاة: باب تحريم الكلام في الصلاة، من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ - فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فو الله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا شتمني - قال: « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن »، أو كما قال رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان قال: « فلا تأتهم » قال: ومنا رجال يتطيرون. قال: « ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم » قال: قلت: ومنا رجال يخطون. قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك ». قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: « ائتني بها » فأتيته بها فقال لها: « أين الله...» الحديث .

(٣) قوله: فوقية لا تزيده قرباً من العرش، ساقطة من بعض النسخ .

الباب الثامن

الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين

١٥٠- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧] ، فأخبر أن له سبحانه وجهاً لا يفنى، ولا يلحقه الهلاك .

وقال عز وجل: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود:٣٧]، فأخبر عز وجل أن له وجهاً وعيناً ولا يُكيَّفُ ولا يُحدُّ.

وقال عز وجل: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه:٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] وقال لموسى وهارون عليهما أفضل الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] فأخبر تعالى عن سمعه وبصره ورؤيته .

١٥١- فصل :

ونفت الجهمية أن يكون لله وجه كما قال، وأبطلوا أن يكون له سمع وبصر وعين، ووافقوا النصارى؛ لأن النصارى لم تثبت الله سميعاً بصيراً إلا على معنى أنه عالم، وكذلك قالت الجهمية، ففي حقيقة قولهم أنهم قالوا: نقول إن الله عالم، ولا نقول سميع بصير على غير معنى عالم، وكذلك قول النصارى .

١٥٢- فصل :

قالت الجهمية: إن الله لا علم له، ولا قدرة، ولا سمع له، ولا بصر، وإنما قصدوا إلى تعطيل التوحيد والتكذيب بأسماء الله عز وجل، فأعطوا ذلك لَفْظَاً، ولم يحصلوا قولاً في المعنى، ولولا أنهم خافوا السيف؛ لأفصحوا بأن الله غير سميع ولا بصير ولا عالم، ولكن خوف السيف منعهم من إظهار زندقتهم .

١٥٣- فصل :

وزعم شيخ منهم(١) مقدم فيهم أن علم الله هو الله، وأن الله عز وجل علم، فنفى العلم من حيث أوهم أنه أثبته، حتى ألزم أن يقول: يا علم اغفر لي؛ إذ كان علم الله عنده هو الله، وكان الله - على قياسه - علماً وقدرة .تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

* * *

قال الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله ورضي عنه : بالله نستهدي، وإياه نستكفي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو المستعان أما بعد :

١٥٤- مسألة :

فمن سألنا فقال: أتقولون إن لله سبحانه وجهاً؟

قيل له: نقول ذلك، خلافاً لما يقوله المبتدعون، وقد دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] .

---

(١) في نسخة: شيخ منهم نحس .

١٥٥- مسألة :

فإن[١] سئلنا أتقولون إن لله يَدَيْن؟

قيل: نقول ذلك بلا كيف، وقد دل عليه قوله عز وجل: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] وقوله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « خَلَقَ الله آدَمَ بِيَدِهِ، فَمَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ»[٢] ، فثبتت أن له يَدَيْن بلا كيف.

وجاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: « إنَّ الله تعالى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوبَى بِيَدِهِ »، وقال عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] . وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ »[٣]. وقال عز وجل: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٥] وليس يجوز في لسان

---

(١) في نسخ: قد، وفي أخرى: سألونا .

(٢) رواه أحمد في « المسند »١/٤٤-٤٥، وأبو داود رقم (٤٧٠٣) في السنة: باب في القدر، والترمذي رقم (٣٠٧٧) في التفسير: باب ومن سورة الأعراف، ومالك في « الموطأ» ٢/٨٩٨-٨٩٩ في القدر: باب النهي عن القول بالقدر، والطبري رقم (١٥٣٥٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وصححه ابن حبان في « صحيحه » (١٨٠٤) « موارد »، والحاكم ٢/٣٢٤- ٣٢٥ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً. وهو حديث صحيح بشواهده. ولفظه: قال رسول الله ﷺ: « إن الله خلق آدم، ثم مسح على ظهره بيمينه واستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار» .

(٣) رواه مسلم رقم (١٨٢٧) في الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه: « إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » .

العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا « بِيَدَيَّ »، ويعني به النعمة، وإذا كان الله عز وجل إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل: فعلتُ « بِيَدَيَّ»، ويعني النعمة، فبطل أن يكون معنى قوله عز وجل: « بِيَدَيَّ » النعمة .

وذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: لي عليه يد بمعنى: لي عليه نعمة، ومن دافعنا عن استعمال اللغة ولم يرجع إلى أهل اللسان فيها دفع عن أن تكون اليد بمعنى النعمة، إذ كان لا يمكنه أن يتعلق في أن اليد النعمة إلا من جهة اللغة، فإذا دفع اللغة لزمه أن لا يفسر القرآن من جهتها، وأن لا يثبت اليد نعمة من قبلها؛ لأنه إن رجع في تفسير قوله عز وجل يدي نعمتي إلى الإجماع، فليس المسلمون على ما ادعى متفقين .

وإن رجع إلى اللغة فليس في اللغة أن يقول القائل: بيدي - يعني نعمتي - وإن لجأ إلى وجه ثالث سألناه عنه، ولن يجد له سبيلاً .

١٥٦- سؤال :

ويقال لأهل البدع: ولم زعمتم أن معنى قوله: « بِيَدَيَّ » نعمتي، أزعمتم ذلك إجماعاً أو لغة؟ فلا يجدون ذلك إجماعاً ولا في اللغة .

وإن قالوا: قلنا ذلك من القياس .

قيل لهم: ومن أين وجدتم في القياس أن قوله تعالى: ﴿بِيَدَىَّ﴾ لا يكون معناه إلا نعمتي؟ ومن أين يمكن أن يعلم بالعقل أن تفسير كذا وكذا، مع أنا رأينا الله عز وجل قد قال في كتابه العزيز الناطق على لسان نبيه الصادق: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٤] وقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[الزخرف:٣] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[محمد:٢٤] .

ولو كان القرآن بلسان غير العرب لما أمكن أن نتدبره، ولا أن نعرف معانيه إذا سمعناه، فلما كان من لا يحسن لسان العرب لا يحسنه، وإنما يعرفه العرب إذا سمعوه، علم أنهم علموه؛ لأنه بلسانهم نزل، وليس في لسانهم ما ادعوه.

١٥٧- مسألة:

وقد اعتل معتل بقول الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات:٤٧] قالوا: الأيدي القوة، فوجب أن يكون معنى قوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ بقدرتي.

قيل لهم: هذا التأويل فاسد من وجوه: أحدها أن الأيدي ليس بجمع لليد؛ لأن جمع يد التي هي نعمة أيادي، وإنما قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فبطل بذلك أن يكون معنى قوله: ﴿بِيَدَىَّ﴾ معنى قوله: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾. وأيضاً فلو كان أراد القوة لكان معنى ذلك بقدرتي، وهذا ناقض لقول مخالفنا، وكاسر لمذهبهم؛ لأنهم لا يثبتون قدرة واحدة، فكيف يثبتون قدرتين.

وأيضاً فلو كان الله تعالى عنى بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ القدرة لم يكن لآدم عليه السلام على إبليس مزية في ذلك، والله تعالى أراد أن يرى[1] فضل آدم عليه السلام عليه إذ خلقه بيديه دونه، ولو كان خالقاً لإبليس بيده كما خلق آدم عليه السلام بيديه لم يكن لتفضيله عليه بذلك وجه، وكان إبليس يقول محتجاً على ربه فقد خلقتني بيديك كما خلقت آدم عليه السلام بهما، فلما أراد الله تعالى تفضيله عليه بذلك قال له موبِّخاً على استكباره على آدم أن يسجد له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾[ص:٧٥] دل على أنه ليس معنى الآية القدرة إذا كان الله عز وجل خلق الأشياء جميعاً بقدرته، وإنما أراد إثبات يَدَيْن، ولم يشارك إبليس آدم عليه

---

(١) فاعل يرى هو إبليس لعنه الله.

السلام في أن خُلِقَ بهما .

١٥٨- فصل :

وليس يخلو قوله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أن يكون معنى ذلك: إثبات يدين نعمتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين جارحتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين قدرتين، أو يكون معنى ذلك إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا قدرتين ولا يوصفان إلا كما وصف الله عز وجل، فلا يجوز أن يكون معنى ذلك نعمتين؛ لأنه لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول القائل: عملت[1] بيدي وهو يعني نعمتي، ولا يجوز عندنا ولا عند خصومنا أن يعني قدرتين، وإذا فسدت الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع؛ وهو أن معنى قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ إثبات يدين ليستا جارحتين ولا قدرتين ولا نعمتين لا يوصفان إلا بأن يقال: إنهما يدان ليستا كالأيدي خارجتان عن سائر الوجوه الثلاثة التي سلفت.

١٥٩- مسألة :

وأيضا فلو كان معنى قوله عز وجل: ﴿بِيَدَيَّ﴾ نعمتي لكان لا فضيلة لآدم عليه السلام على إبليس في ذلك على مذهب مخالفينا؛ لأن الله عز وجل قد ابتدأ إبليس على قولهم كما ابتدأ آدم عليه السلام ، وليس تخلو النعمتان أن يكونا عني بهما بدن آدم عليه السلام أو يكونا عرضين خلقا في بدن آدم عليه السلام ، فلو كان عنى بدن آدم فالأبدان عند مخالفينا من المعتزلة جنس واحد، وإذا كانت الأبدان عندهم جنساً واحداً فقد حصل في جسد إبليس على مذهبهم من النعمة ما حصل في جسد آدم عليه السلام، وكذلك إن عني عرضين فليس من عرض فَعَلَهُ في بدن آدم عليه السلام من لون أو حياة أو قوة أو غير ذلك إلا وقد فعل من جنسه عندهم في بدن إبليس، وهذا

(١) في بعض النسخ: حملت .

يوجب أنه لا فضيلة لآدم عليه السلام على إبليس في ذلك، وإنما احتج على إبليس بذلك ليريه أن لآدم عليه السلام في ذلك فضيلة. فدل ما قلناه على أن الله عز وجل لما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لم يعن نعمتي.

١٦٠- مسألة:

ويقال لهم: لم أنكرتم أن يكون الله عز وجل عنى بقوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ يَدَيْن ليستا نعمتين؟

فإن قالوا: لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: ولم قضيتم(١) أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة؟ فإن [أ]رجعونا إلى شاهدنا، أو إلى ما نجده فيما بيننا من الخلق، فقالوا: اليد إذا لم تكن نعمة في الشاهد لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: إن حملتم على الشاهد وقضيتم به على الله عز وجل، فكذلك لم نجد حياً من الخلق إلا جسماً لحماً ودماً فاقضوا بذلك على الله عز وجل - تعالى عن ذلك - وإلا كنتم لقولكم تاركين ولاعتلالكم ناقضين، وإن أثبتم حياً لا كالأحياء منا، فلم أنكرتم أن تكون اليدان اللتان أخبر الله عز وجل عنهما يدين ليستا نعمتين، ولا جارحتين، ولا كالأيدي؟

وكذلك يقال لهم: لم تجدوا مدبِّراً حكيماً إلا إنساناً، ثم أثبتم أن للدنيا مدبراً حكيماً ليس كالإنسان، وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم، فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين من أجل أن ذلك خلاف الشاهد.

---

(١) في نسخة: قلتم.

١٦١- مسألة :

فإن قالوا إذا أثبتم لله يدين لقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلم لا أثبتم له أيدي لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١] ؟

قيل لهم: قد أجمعوا على بطلان قول من أثبت لله أيدي، فلما أجمعوا على بطلان قول من قال ذلك وجب أن يكون الله عز وجل ذكر أيدي، ورجع إلى إثبات يَدَيْن؛ لأن الدليل عنده دل على صحة الإجماع[1]، وإذا كان الإجماع صحيحاً وجب أن يرجع من قوله: أيدٍ إلى يَدَيْن؛ لأن القرآن على ظاهره، ولا يزول عن ظاهره إلا بحجة، فوجدنا حجة أزلنا بها ذكر الأيدي عن الظاهر إلى ظاهر آخر، ووجب أن يكون الظاهر الآخر على حقيقة لا يزول عنها إلا بحجة .

١٦٢- مسألة :

فإن قال قائل: إذا ذكر الله عز وجل الأيدي وأراد يَدَيْن، فما أنكرتم أن يذكر الأيدي ويريد يداً واحدة؟

قيل له: ذكر الله عز وجل أيدٍ وأراد يَدَيْن؛ لأنهم أجمعوا على بطلان قول من قال: أيدٍ كثيرة، وقول من قال: يداً واحدة، فقلنا: يدان؛ لأنْ القرآن على ظاهره، إلا أن تقوم حجة بأن يكون على خلاف الظاهر .

١٦٣- مسألة :

فإن قال قائل: ما أنكرتم أن يكون قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١]

---

(١) قلت: أيد جمع، وأقل الجمع اثنان. انظر ما قيل في آية الميراث: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ في تفسير القرطبي .

وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ على المجاز؟

قيل له: حُكْمُ كلام الله عز وجل أن يكون على ظاهره وحقيقته، ولا يُخرَج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا بحجة، ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم، فإذا ورد بلفظ العموم والمراد به الخصوص، فليس هو على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة، كذلك قول الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة، ولو جاز ذلك لجاز لمدَّعٍ أن يدعي أن ما ظاهره العموم فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة، وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان لم يجز لكم ما ادعيتموه أنه مجاز بغير حجة، بل واجب أن يكون قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ إثبات يَدَيْن لله تعالى في الحقيقة غير نعمتين، إذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدي، وهو يعني النعمتين[(١)].

* * *

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٨/١٦٢:
قد صنف أبو عبيد كتاب «غريب الحديث» وما تعرض لأخبار الصفات الإلهية بتأويل أبداً، ولا فسر منها شيئاً، وقد أخبر بأنه ما لحق أحداً يفسرها، فلو كان والله تفسيرها سائغاً، أو حتماً، لأوشك أن يكون اهتمامهم بذلك فوق اهتمامهم بأحاديث الفروع والآداب. فلما لم يتعرضوا لها بتأويل، وأقروها على ما وردت عليه، علم أن ذلك هو الحق الذي لا حيدة عنه.

الباب التاسع

الرد على الجهمية في نفيهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته(١)

١٦٤- قال الله عز وجل: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر:١١]، وذكر العلم في خمسة مواضع من كتابه العزيز، وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[هود: ١٤]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[البقرة:٢٥٥] وذكر القوة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وقال تعالى: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧].

١٦٥- فصل:

وزعمت الجهمية أن الله عز وجل لا علم له ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر(٢)، وأرادوا أن ينفوا أن الله تعالى عالم قادر حي سميع بصير، فمنعهم خوف السيف من إظهارهم(٣) نفي ذلك، فأتوا بمعناه؛ لأنهم إذا قالوا: لا علم لله ولا قدرة له، فقد قالوا: إنه ليس بعالم ولا قادر، وجب ذلك عليهم، وهذا إنما أخذوه عن أهل الزندقة والتعطيل؛ لأن الزنادقة قد قال كثير منهم: إن الله تعالى ليس بعالم ولا قادر ولا حي ولا

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(١٩٨-١٠٠) و(٢٧٨-٢٧٩).

(٢) في نسخة: ولا بصر له.

(٣) في نسخة: من إظهار.

سميع ولا بصير، فلم تقدر المعتزلة أن تفصح بذلك فأتت بمعناه، وقالت: إن الله عالم قادر حي سميع بصير من طريق التسمية من غير أن يثبتوا له حقيقة العلم والقدرة والسمع والبصر .

١٦٦- فصل :

وقد قال رئيس من رؤسائهم ـ وهو أبو الهذيل العلاف ـ إن علم الله هو الله، فجعل الله تعالى علماً .

وأُلْزِمَ، فقيل له: إذا قلت إن علم الله هو الله فقل: يا علم الله اغفر لي وارحمني، فأبى ذلك، فلزمه المناقضة .

واعلموا - رحمكم الله - أن من قال: عالم ولا علم كان مناقضاً، كما أن من قال علم[1] ولا عالم كان مناقضاً، وكذلك القول في القدرة والقادر، والحياة والحي، والسمع والبصر والسميع والبصير.

١٦٧- جواب :

ويقال لهم: خبرونا عمن[2] زعم أن الله متكلم قائلٌ آمرٌ ناهٍ، لا قول له ولا كلام، ولا أمر له ولا نهي، أليس هو مناقض خارج عن جملة المسلمين؟

فلا بد من نعم، فيقال لهم: فكذلك من قال: إن الله تعالى عالم ولا علم له كان ذلك مناقضاً خارجاً عن جملة المسلمين .

وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن لله علماً لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء،

---

(١) في نسخة: علم الله .
(٢) في نسخة: أن من .

ولا يمنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث، ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله، فمن جحد أن لله علماً فقد خالف المسلمين وخرج عن اتفاقهم .

١٦٨- جواب :

ويقال لهم: إذا كان الله مريداً أفله إرادة ؟

فإن قالوا: لا، قيل لهم: فإذا أثبتم مريداً لا إرادة له، فأثبتوا قائلاً لا قول له، وإن أثبتوا الإرادة قيل لهم: فإذا كان المريد لا يكون مريداً إلا بإرادة، فما أنكرتم أن لا يكون العالم عالماً إلا بعلم، وأن يكون لله علم كما أثبتم له إرادة .

١٦٩- مسألة :

وقد فرقوا بين العلم والكلام، فقالوا: إن الله عز وجل علم موسى وفرعون، وكَلَّم موسى ولم يُكَلِّم فرعون، فكذلك قد يقال: عَلَّم موسى الحكمة وفصل الخطاب، وآتاه النبوة، ولم يُعلِّم ذلك فرعون فإن كان لله كلام؛ لأنه كَلَّم موسى ولم يكلم فرعون، فكذلك لله علم؛ لأنه عَلَّم موسى ولم يعلِّم فرعون .

ثم يقال لهم: إذا وجب أن لله كلاماً به كَلَّم موسى دون فرعون إذ كَلَّم موسى دونه، فما أنكرتم إذا علمهما جميعاً أن يكون له عِلْمٌ بِهِ عَلمَهُمَا جميعاً .

ثم يقال: قد كَلَّم الله الأشياء بأن قال لها: كوني، وقد أثبتم لله قولاً، فكذلك إن عَلِمَ الأشياء كلها، فله علم .

١٧٠- جواب :

ثم يقال لهم: إذا أوجبتم أن لله كلاماً وليس له علم؛ لأن الكلام أخص من العلم، والعلم أعم منه، فقولوا: إن لله قدرة؛ لأن العلم أعم عندكم من القدرة؛ لأن من مذاهب القدرية أنهم لا يقولون إن الله لا يقدر أن يخلق الكفر، فقد أثبتوا القدرة أخص من العلم، فينبغي لهم أن يقولوا على اعتلالهم إن لله قدرة .

١٧١- جواب :

ثم يقال: أليس الله عالماً، والوصف له بأنه عالم أعم من الوصف له بأنه متكلم مكلِّم؟ ثم لم يجب؛ لأن الكلام أخص من أن يكون الله تعالى متكلماً غير عالم؟ فلم لا قلتم إن الكلام ـ وإن كان أخص من العلم ـ لا ينفي أن يكون لله علم، كما لم ينف بخصوص الكلام أن يكون الله عالماً .

١٧٢- جواب :

ويقال لهم: من أين علمتم أن الله عالم؟ فإن قالوا: بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١٢] .

قيل لهم: ولذلك فقولوا: إن لله علماً بقوله:﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] وبقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[فاطر:١١] وكذلك قولوا: إن له قوة لقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[فصلت:١٥].

فإن قالوا: قلنا: إن الله عالم؛ لأنه صنع العالم على ما فيه من آثار الحكمة واتساق التدبير.

قيل لهم: فلم لا قلتم إن لله علماً بما ظهر في العالم من حكمه وآثار تدبيره؟ لأن الصنائع الحكمية لا تظهر إلا من ذي علم، كما لا تظهر إلا من عالم، وكذلك لا تظهر إلا من ذي قوة، كما لا تظهر إلا من قادر .

١٧٣- جواب :

ويقال لهم: إذا نفيتم علم الله فلم لا[1] نفيتم أسماءه؟

فإن قالوا: كيف ننفي أسماءه وقد ذكرها في كتابه؟

قيل لهم: فلا تنفوا العلم والقوة؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر ذلك في كتابه العزيز .

١٧٤- جواب آخر :

ويقال لهم: قد عَلَّم الله تعالى نبيه ﷺ الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ولا يجوز أن يُعَلِّمَهُ ما لا يعلمه، فكذلك لا يجوز أن يُعَلِّم الله نبيه ما لا عِلْمَ لله به، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً .

١٧٥- جواب :

ويقال لهم: أليس إذا لعن الله الكافرين، فلعنه لهم معنى، ولعن النبي ﷺ لهم معنى؟ فإن قالوا[2]: نعم .

فيقال لهم: فما أنكرتم من أن الله تعالى إذا عَلَّم نبيه ﷺ شيئاً فكان للنبي ﷺ علم، ولله سبحانه علم، وإذا كنا متى أثبتناه غاضباً[3] على الكافرين فلا بد من إثبات غضب، وكذلك إذا أثبتناه راضياً عن المؤمنين فلا بد من إثبات رضى، وكذلك إذا أثبتناه حياً سميعاً بصيراً فلا بد من إثبات حياة وسمع وبصر.

---

(١) في نسخة: هلا .
(٢) في نسخة: فمن قولهم .
(٣) في نسخة: غضباناً .

١٧٦- جواب :

ويقال لهم: وجدنا اسم عالم اشتق من عِلْم، واسم قادر اشتق من قدرة، وكذلك اسم حي اشتق من حياة، واسم سميع اشتق من سمع، واسم بصير اشتق من بصر، ولا تخلو أسماء الله عز وجل من أن تكون مشتقة، إما لإفادة معنى، أو على طريق التلقيب، فلا يجوز أن يسمى الله عز وجل على طريق التلقيب باسم ليس فيه إفادة معنى، وليس مشتقاً من صفة .

فإذا قلنا: إن الله عز وجل عالم قادر فليس تلقيباً، كقولنا: زيد وعمرو، وعلى هذا إجماع المسلمين .

وإذا لم يكن ذلك تلقيباً، وكان مشتقاً من عِلْم، فقد وجب إثبات العلم، وإن كان ذلك لإفادة معنى[١]، فلا يختلف ما هو (كذا) لإفادة معنى[١] وجب[٢]. ووجب إذا[٣] كان معنى العالم منا أن له علماً أن يكون: كل عالم فهو ذو علم[٤]، كما إذا كان قولي: موجود مفيداً معنى الإثبات، كان الباري تعالى واجباً إثباته؛ لأنه سبحانه وتعالى موجود .

١٧٧- جواب :

ويقال للمعتزلة والجهمية والحرورية: أتقولون إن لله علماً بالأشياء سابقاً فيها، ولوضع كل حامل، وحمل كل أنثى، وبإنزال كل ما أنزل؟

فإن قالوا: نعم، فقد أثبتوا العلم ووافقوا .

وإن قالوا: لا، قيل لهم: هذا جحد منكم؛ لقول الله عز وجل:

---

(١) في نسخة: معناه .

(٢) في بعض النسخ: واجب .

(٣) كذا في الأصول ولعلى إذ .

(٤) في العبارة اضطراب .

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] ولقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر:١١] ولقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤].

وإذا كان قول الله عز وجل: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩] يوجب أنه عليم يَعْلَم الأشياء كذلك[1] فما أنكرتم أن تكون هذه الآيات توجب أن لله علماً بالأشياء، سبحانه وبحمده .

١٧٨- جواب :

ويقال لهم: أتقولون أن الله عز وجل علم بالتفرقة بين أوليائه وأعدائه؟ وهل هو مريد لذلك؟ وهل له إرادة للإيمان إذا أراد الإيمان؟

فإن قالوا: نعم، فقد وافقوا .

وإن قالوا: إذا أراد الإيمان فله إرادة .

قيل لهم: وكذلك إذا فرق بين أوليائه وأعدائه فلا بد من أن يكون له علم بذلك، وكيف يجوز أن يكون للخلق علم بذلك، وليس للخالق عز وجل علم بذلك؟! وهذا يوجب أن للخلق مزية في العلم وفضيلة على الخالق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

١٧٩- جواب :

ويقال لهم: إذا كان من له علم من الخلق أولى بالمنزلة الرفيعة ممن لا علم له، فإذا زعمتم أن الله عز وجل لا علم له لزمكم أن الخلق أعلى مرتبة من الخالق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) في نسخة: فكذلك .

١٨٠- جواب :

ويقال لهم: إذا كان من لا علم له من الخلق يلحقه الجهل والنقصان، فما أنكرتم من أنه لا بد من إثبات علم الله؟ وإلا ألحقتم به النقصان جل وعز عن قولكم وعلا، ألا ترون أن من لا يعلم من الخلق يلحقه الجهل والنقصان، ومن قال ذلك في الله عز وجل وصف الله سبحانه بما لا يليق به، فكذلك إذا كان من قيل له من الخلق لا علم له لحقه الجهل والنقصان، وجب أن[1] لا يُنْفَى ذلك عن الله عز وجل لأنه لا يلحقه جهل ولا نقصان .

١٨١- جواب :

ويقال لهم: هل يجوز أن ينسق الصنائع الحكمية من[2] ليس بعالم؟

فإن قالوا: ذلك محال ولا يجوز في وجود الصنائع التي تجري على ترتيب ونظام إلا من عالم قادر حي .

قيل لهم: وكذلك لا يجوز وجود الصنائع الحكمية التي تجري على ترتيب ونظام إلا من ذي علم وقدرة وحياة، فإن جاز ظهورها لا من ذي علم فما أنكرتم من جواز ظهورها لا من عالم قادر حي .

وكل مسألة سألناهم عنها في العلم فهي داخلة عليهم في القدرة والحياة والسمع والبصر .

١٨٢- مسألة :

وزعمت المعتزلة أن قول الله عز وجل: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٦١] إن معناه عليم .

---

(١) في بعض النسخ: أن لا .
(٢) في بعض النسخ: ممن .

قيل لهم: فإذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] وقـال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١] فهـل معـنى ذلـك عندكم علم؟

فإن قالوا: نعم .

قيل لهم: فقد وجب عليكم أن تقولـوا معـنى قولـه: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ أعلم، وأعلم إذ كان معنى ذلك العلم .

١٨٣- فصل :

ونفت المعتزلة صفات رب العالمين، وزعمت أن معنى سميع بـصير، أي بمعنى عليم، كما زعمت النصارى أن سمع الله هو بـصره وهـو رؤيتـه، وهو كلامه، وهو علمه، وهو ابنه. عـز الله وجـل وتعـالى عـن ذلـك علـواً كبيراً .

فيقال للمعتزلة: إذا زعمتم أن معنى سميع وبصير معـنى عـالم، فهـلا زعمتم أن معنى قادر معنى عالم، فإذا زعمتم أن معنى سميع وبـصير معـنى قادر، فهلا زعمتم أن معنى قادر معـنى عـالم، وإذا زعمـتم أن معـنى حـي معنى قادر، فلم لا زعمتم أن معنى قادر معنى عالم؟

فإن قالوا: هذا يوجب أن يكون كل معلوم مقدوراً .

قيل لهم: ولو كان معنى سميـع بـصير معـنى عـالم لكـان كـل معلـوم مسموعاً، و إذا لم يجز ذلك بطل قولكم .

* * *

الباب العاشر

الكلام في الإرادة والرد على المعتزلة في ذلك[1]

١٨٤- مسألة :

يقال لهم: ألستم تزعمون أن الله عز وجل لم يزل عالماً؟ فمن قولهم: نعم، قيل لهم: فلم لا قلتم: إن من لم يزل عالماً في وقت من الأوقات، فلم يزل مريداً أن يكون في ذلك الوقت، وما لم يزل عالماً أنه لا يكون، فلم يزل مريداً أن لا يكون، وأنه لم يزل مريداً أن يكون ما علم كما علم؟

فإن قالوا: لا نقول إن الله لم يزل مريداً؛ لأن الله مريد بإرادة مخلوقة .

يقال لهم: ولم زعمتم أن الله عز وجل مريد بإرادة مخلوقة؟ وما الفصل بينكم وبين الجهمية في زعمهم أن الله عَالِمٌ بعلم مخلوق، وإذا لم يجز أن يكون علم الله مخلوقاً، فما أنكرتم أن لا تكون إرادة الله مخلوقة؟

فإن قالوا: لا يجوز أن يكون علم الله محدثاً؛ لأن ذلك يقتضي أن يكون حدث بعلم آخر، كذلك لا إلى غاية .

قيل لهم: ما أنكرتم أن لا تكون إرادة الله محدثة مخلوقة؛ لأن ذلك يقتضي أن تكون حدثت عن إرادة أخرى، ثم كذلك لا إلى غاية .

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٦٠-٦٥) و (١٠٥-١٠٨) .

فإن قالوا: لا يجوز أن يكون علم الله محدثاً؛ لأن من لم يكن عالماً ثم علم لحقه النقصان .

قيل لهم: ولا يجوز أن تكون إرادة الله محدثة مخلوقة؛ لأن من لم يكن مريداً ثم أراد لحقه النقصان، وكما لا يجوز أن تكون إرادته تعالى محدثة مخلوقة، كذلك لا يجوز أن يكون كلامه محدثاً مخلوقاً .

١٨٥- دليل آخر :

ويقال لهم: إذا زعمتم أنه قد كان في سلطان الله عز وجل الكفر والعصيان، وهو لا يريده، وأراد أن يؤمن الخلق أجمعون، فلم يؤمنوا. فقد وجب على قولكم: إن أكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن، وأكثر ما شاء الله أن لا يكون كان؛ لأن الكفر الذي كان وهو لا يشاؤه عندكم أكثر من الإيمان الذي كان وهو يشاؤه، وأكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن، وهذا جحد لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله أن يكون كان، وما لا يشاء لا يكون .

١٨٦- حجة أخرى :

ويقال لهم: يستفاد من قولكم إن كثيراً مما شاء إبليس أن يكون كان؛ لأن الكفر أكثر من الإيمان، وأكثر ما كان هو شاءه؛ فقد جعلتم مشيئة إبليس أنفذ من مشيئة رب العالمين، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ولا إله غيره؛ لأن أكثر ما شاءه[1] كان، وأكثر ما كان فقد شاءه، وفي هذا إيجاب أنكم قد جعلتم لإبليس مرتبة في المشيئة ليست لرب العالمين، تعالى الله عز وجل عن قول الظالمين علواً كبيراً .

١٨٧- حجة أخرى :

ويقال لهم: أيما أولى بصفة الاقتدار من إذا شاء أن يكون الشيء كان

(١) أي إبليس لعنه الله.

لا محالة، وإذا لم يرده لم يكن، أو من يريده أن يكون فلا يكون، ويكون مالا يريد؟

فإن قالوا: من لا يكون أكثر ما يريده أولى بصفة الاقتدار كابروا.
وقيل لهم: إن جاز لكم ما قلتموه جاز لقائل أن يقول: من يكون مالا يعلمه أولى بالعلم ممن لا يكون إلا ما يعلمه .

وإن رجعوا عن هذه المكابرة، وزعموا أن من إذا أراد أمراً كان، وإذا لم يرده لا يكون أولى بصفة الاقتدار، لزمهم على مذاهبهم أن يكون إبليس _ لعنه الله _ أولى بالاقتدار من الله عز وجل؛ لأن أكثر ما أراده كان، وأكثر ما كان قد أراده .

وقيل لهم: إذا كان من إذا أراد أمراً كان، وإذا لم يرده لم يكن أولى بصفة الاقتدار، فيلزمكم أن يكون الله عز وجل إذا أراد أمراً كان، وإذا لم يرده لم يكن؛ لأنه أولى بصفة الاقتدار .

١٨٨- مسألة :
ويقال لهم: أيما أولى بالإلهية والسلطان من لا يكون إلا ما يعلمه، ولا يغيب عن علمه شيء، ولا يجوز ذلك عليه؟ أو من يكون مالا يعلمه، ويعزب عن علمه أكثر الأشياء؟

فإن قالوا: من لا يكون إلا ما يعلمه ولا يعزب عن علمه شيء أولى بصفة الإلهية .

قيل لهم: فكذلك من لا يريد كون شيء إلا ما كان، ولا يكون إلا ما يريده، ولا يعزب عن إرادته شيء، أولى بصفة الإلهية، كما قلتم ذلك في العلم، وإن قالوا ذلك تركوا قولهم، ورجعوا عنه، وأثبتوا الله عز وجل مريداً لكل كائن، وأوجبوا أنه لا يكون إلا ما يريد أن يكون .

١٨٩- مسألة :

ويقال لهم: إذا قلتم إنه يكون في سلطانه تعالى ما لا يريد، فقد كان إذاً في سلطانه ما كرهه، فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فإذا كان في سلطانه ما يكرهه، فما أنكرتم أن يكون في سلطانه ما يأبى كونه، فإن أجابوا إلى ذلك، قيل لهم: فقد كانت المعاصي شاء الله أم أبى، وهذه صفة الضعف والفقر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

١٩٠- مسألة :

ويقال لهم: أليس مما فعل العباد ما يُسْخِطه تعالى وما يغضب عليهم إذا فعلوه، فقد أغضبوه وأسخطوه؟ فلا بد من نعم .

يقال لهم: فلو فعل العباد ما لا يريد وما يكرهه لكانوا أكرهوه، وهذه صفة القهر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

١٩١- مسألة :

ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧ والبروج:١٦]؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فمن زعم أن الله تعالى فعل ما لا يريد، وأراد أن يكون من فعله ما لا يكون لزمه أن يكون قد وقع ذلك وهو ساهٍ غافل عنه، أو أن الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريده لَحِقَهُ، فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فكذلك من زعم أنه يكون في سلطان الله عز وجل ما لا يريده من عبيده لزمه أحد أمرين: إما أن يزعم أن ذلك كان عن سهو وغفلة، أو أن يزعم أن الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريده لحقه .

١٩٢- مسألة :

ويقال لهم: أليس من زعم أن الله عز وجل فعل مالا يعلمه قد نسب الله سبحانه إلى ما لا يليق به من الجهل؟ فلا بد من نعم. فيقال لهم: فكذلك يلزم من زعم أن الله[1] فعل ما لا يريده، لزمه أن ينسب الله سبحانه إلى السهو والتقصير عن بلوغ ما يريده، فإذا قالوا: نعم .

قيل لهم: وكذلك يلزم من زعم أن العباد يفعلون مالا يعلم الله، نسب الله تعالى إلى الجهل، فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فكذلك إذا كان في كون فعل فعله الله وهو لا يريده إيجاب سهو أو ضعف وتقصير عن بلوغ ما يريده، فكذلك إذا كان من غيره مالا يريده وجب إثبات سهو وغفلة أو ضعف وتقصير عن بلوغ ما يريد، لا فرق في ذلك بين ما كان منه وما كان من غيره .

١٩٣- مسألة :

ويقال لهم: إذا كان في سلطان الله مالا يريده وهو يعلمه، ولا يلحقه الضعف والتقصير عن بلوغ ما يريده، فما أنكرتم أن يكون في سلطانه مالا يعلمه ولا يلحقه النقصان، فإن لم يجز هذا لم يجز ما قلتموه .

١٩٤- مسألة :

إن قال قائل: لم قلتم: إن الله مريد لكل كائن أن يكون، ولكل مالا يكون أن لا يكون؟

قيل له: الدليل على ذلك: أن الحجة قد وضحت، أن الله عز وجل خلق الكفر والمعاصي ـ وسنبين ذلك بعد هذا الموضع من كتابنا ـ وإذا

(١) في الأصول: عبد الله .

وجب أن الله سبحانه خالق لذلك، فقد وجب أنه مريد له؛ لأنه لا يجوز أن يخلق مالا يريده.

١٩٥- وجواب آخر:

أنه لا يجوز أن يكون في سلطان الله عز وجل من إكساب العباد مالا يريده، كما لا يجوز أن يكون من فعله المُجْمَع على أنه فعل مالا يريده؛ لأنه لو وقع من فعله مالا يعلمه لكان في ذلك إثبات النقصان.

وكذلك القول لو وقع من عباده مالا يعلمه، فكذلك لا يجوز أن يقع من عباده مالا يريده؛ لأن ذلك يوجب أن يقع عن سهو وغفلة، أو عن ضعف وتقصير عن بلوغ ما يريده، كما يجب ذلك لو وقع من فعله المُجْمَع على أنه فعله مالا يريده.

وأيضاً فلو كانت المعاصي ـ وهو لا يشاء أن تكون المعاصي ـ كائنة شاء الله أم أبى، وهذه صفة الضعف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد أوضحنا أن الله لم يزل مريداً على الحقيقة التي عِلْمُهُ عليها، فإذا كان الكفر مما يكون وقد علم ذلك فقد أراد أن يكون.

١٩٦- مسألة:

ويقال لهم: إذا كان الله عز وجل علم أن الكفر يكون، وأراد أن لا يكون، فقد أراد أن يكون ما علم على خلاف ما علم، وإذا لم يجز ذلك، فقد أراد أن يكون ما لم يعلم كما علم.

١٩٧- مسألة:

ويقال لهم: لم أبيتم أن يريد الله الكفر الذي علم أنه يكون قبيحاً فاسداً متناقضاً خلافاً للإيمان؟

فإن قالوا: لأن مريد السَفَهِ سَفِيهٌ .

قيل لهم: ولم قلتم ذلك؟ أو ليس قد أخبر الله تعالى عن ابن آدم أنه قال لأخيه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [المائدة: ٢٨-٢٩] فأراد أن لا يقتل أخاه لئلا يعذب، وأن يقتله أخوه حتى يبوء بإثم قتله له وسائر آثامه التي كانت عليه، فيكون من أصحاب النار، فأراد قتل أخيه[1] الذي هو سفه، ولم يكن بذلك سفيهاً، فلم زعمتم أن الله سبحانه إذا أراد سفه العباد وجب أن ينسب ذلك إليه؟

١٩٨- مسألة :

ويقال لهم: قد قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣] وكان سجنهم إياه معصية، فأراد المعصية التي هي سجنهم إياه دون فعل ما يدعونه إليه، ولم يكن بذلك سفيهاً، فما أنكرتم من أن لا يجب إذا أراد الباري سبحانه سفه العباد ـ بأن يكون قبيحاً منهم خلافاً للطاعة ـ أن يكون سفيهاً .

١٩٩- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أليس من يرى منا جرم المسلمين كان سفيهاً، والله سبحانه يراهم ولا يُنسب إلى السفه؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فيما أنكرتم أن من أراد السفه منا كان سفيهاً، والله سبحانه يريد سفه السفهاء ولا ينسب إلى الله تعالى سفه، تعالى الله عن ذلك .

---

(١) أي أراد القتل من أخيه .

٢٠٠- حجة أخرى :

ويقال لهم: السفيه منا إنما كان سفيها كما أراد السفه؛ لأنه نهي عن ذلك، ولأنه تحت شريعة من هو فوقه، ومن يحد له الحدود، ويرسم له الرسوم، فلما أتى ما نهي عنه كان سفيهاً، ورب العالمين جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ليس تحت شريعة ولا فوقه من يحد له الحدود، ويرسم له الرسوم، ولا فوقه مبيح ولا حاظر ولا آمر ولا زاجر، فلم يجب إذا أراد أن يكون قبيحاً أن ينسب إلى السفه سبحانه وتعالى .

٢٠١- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أليس من خلَّى بين عبيده وبين إمائه منا يزني بعضهم ببعض، وهو يقدر على التفريق بينهم يكون سفيهاً، ورب العالمين عز وجل قد خلَّى بين عبيده وإمائه يزني بعضهم ببعض، وهو يقدر على التفريق بينهم وليس سفيهاً، وكذلك من أراد السفه منا كان سفيهاً، ورب العالمين جل وعز يريد السفه، وليس سفيهاً .

٢٠٢- حجة أخرى :

ويقال لهم: من أراد طاعة الله منا كان مطيعاً، كما أن من أراد السفه كان سفيهاً، ورب العالمين عز وجل يريد الطاعة وليس مطيعاً، فكذلك يريد السفه، وليس سفيهاً .

٢٠٣- حجة أخرى :

ويقال لهم: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فأخبر أنه لو شاء أن لا يقتتلوا ما اقتتلوا، قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] من القتال، فإذا وقع القتال فقد شاءه، كما أنه قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٨]

فقد أوجب أن الرد لو كان إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر، وأنهم إذا لم يردّهم إلى الدنيا لم يعودوا، فكذلك لو شاء الله أن لا يقتتلوا لما اقتتلوا، وإذا اقتتلوا فقد شاء أن يقتتلوا .

٢٠٤- مسألة :

ويقال لهم: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] ، وإذا حق القول بذلك فما شاء أن تؤتي كل نفس هداها؛ لأنه إذا لم يؤتها هداها لما حق القول بتعذيب الكافرين، وإذا لم يرد ذلك فقد شاء ضلالتها .

فإن قالوا: معنى ذلك لو شئنا لأجبرناهم على الهدى واضطررناهم إليه .

قيل لهم: فإذا أجبرهم على الهدى واضطرهم إليه أيكونون مهتدين؟

فإن قالوا: نعم .

قيل لهم: فإذا كان إذا فعل الهدى كانوا مهتدين، فما أنكرتم لو فعل كفر الكافرين لكانوا كافرين، وهذا هدم لقولهم؛ لأنهم زعموا أنه لا يفعل الكفر إلا كافر .

ويقال لهم أيضاً: على أي وجه يؤتيهم الهدى لو آتاهم إياه، وشاء ذلك لهم؟

فإن قالوا: على الإلجاء .

قيل لهم: وإذا ألجأهم إلى ذلك هل ينفعهم ما يفعلونه على طريق الإلجاء؟ فإن قالوا: لا[1] .

---

(١) في نسخ: نعم .

قيل لهم: فإذا أخبر أنه لو شاء لآتاهم الهدى لولا ما حق منه من القول أنه يملأ جهنم، وإذا كان لو ألجأهم لم يكن نافعاً لهم ولا مزيلاً للعذاب عنهم، كما لم ينفع فرعون قوله الذي قاله عند الغرق والإلجاء، فلا معنى لقولكم، لأنه لولا ما حق من القول لأوتيت كل نفس هداها، وإتيان الهدى على الوجه الذي قلتموه لا يزيل العذاب .

٢٠٥- مسألة أخرى :

ويقال لهم: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف:٣٣] مخبراً أنه لولا أن يكون الناس مجتمعين على الكفر لبسط للكافرين[1] الرزق، وجعل لبيوتهم سقفاً من فضة، لكنه لم يبسط لهم الرزق، ولم يجعل للكافرين سقفاً من فضة، فما أنكرتم من أنه تعالى لو لم يرد أن يكون الكافرون ما خلقه، مع علمه بأنه إذا خلقهم كانوا كافرين، كما أنه لو أراد أن يكون الناس على الكفر مجتمعين لجعل للكافرين سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون؛ لكنه لم يجعل للكافرين سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، لئلا يكونوا الناس جميعاً على الكفر متطابقين، إذا كان في علمه أنه لو فعل ذلك لكانوا جميعاً على الكفر متطابقين .

* * *

(١) في نسخة : يكفر الكافرين .

الباب الحادي عشر
في تقدير أعمال العباد
والاستطاعة والتعديل والتجوير[1]

٢٠٦- مسألة :

يقال للقدرية: هل يجوز أن يُعَلِّم الله عز وجل عباده شيئاً لا يعلمه؟

فإن قالوا: لا يُعلِّم الله عباده شيئاً إلا وهو به عالم.

قيل لهم: فكذلك لا يقدرهم على شيء إلا وهو عليه قادر، فلا بد من الإجابة إلى ذلك.

فيقال لهم: فإذا أقدرهم على الكفر، فهو قادر أن يخلق الكفر لهم، وإذا قدر على خلق الكفر لهم فلم أثبتم[2] أن يخلق كفرهم فاسداً متناقضاً باطلاً، وقد قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧، والبروج:١٦] وإذا كان الكفر مما أراد الله فقد فعله وقَدَّرَهُ .

٢٠٧- مسألة :

ويُرَدُّ عليهم في اللطف. يقال لهم: أليس الله عز وجل قادراً على أن يفعل بخلقه من بسط الرزق ما لو فعله بهم لبغوا[3]؟ وأن يفعل بهم ما لو فعله بالكفار لكفروا ؟ كما قال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص (٤٩٩-٥٤٥) .

(٢) في نسخة: أبيتم .

(٣) في نسخة: لبغوا في الأرض .

[الشورى:٢٧] وكما قال: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ الآية [الزخرف:٣٣]. فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فما أنكرتم من أنه قادر على أن يفعل بهم لطفاً لو فعله بهم لآمنوا أجمعون، كما أنه قادر أن يفعل بهم أمراً لو فعله بهم لكفروا كلهم .

٢٠٧- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١] وقال: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥] يعني في وسط الجحيم، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧] .

ما الفضل الذي فعله بالمؤمنين، الذي لو لم يفعله لاتبعوا الشيطان، ولو لم يفعله ما زكى منهم من أحد أبداً ؟ وما النعمة التي لو لم يفعلها لكانوا من المحضرين؟

وهل ذلك شيء لم يفعله بالكافرين وخص به المؤمنين؟

فإن قالوا: نعم، فقد تركوا قولهم، وأثبتوا لله عز وجل نعماً وفضلاً على المؤمنين ابتدأهم بجميعه، ولم ينعم بمثله على الكافرين، وصاروا إلى القول بالحق .وإن قالوا: قد فعل الله ذلك أجمع بالكافرين لما فَعَله بالمؤمنين فقل(١) لهم .

فإذا كان الله قد فعل ذلك أجمع بالكافرين، فلم يكونوا زاكين ،

---

(١) في نسخة: فعل .

وكانوا للشيطان متبعين، وفي النار محضرين .

وهل يجوز أن يقول للمؤمنين: لولا أني خلقت لكم أيدٍ وأرجل لكنتم للشيطان متبعين؟ وهو قد خلق الأيدي والأرجل للكافرين وكانوا للشيطان متبعين .

فإن قالوا: لا يجوز ذلك .

قيل لهم: وكذلك لا يجوز ما قلتموه .

وهذا يبين أن الله عز وجل اختص المؤمنين من النعم والتوفيق والتسديد بما لم يُعطِ الكافرين، وفضل عليهم المؤمنين .

٢٠٨- مسألة في الاستطاعة :

ويقال لهم: أليست استطاعة الإيمان نعمة من الله عز وجل وفضلاً وإحساناً؟

فإذا قالوا: نعم .

قيل لهم: فما أنكرتم أن يكون توفيقاً وتسديداً، فلا بد من الإجابة إلى ذلك .

يقال لهم: فإذا كان الكافرون قادرين على الإيمان، فما أنكرتم أن يكونوا موفَّقين للإيمان، ولو كانوا موفَّقين مسدَّدين لكانوا ممدوحين، وإذا لم يجز ذلك لم يجز أن يكونوا على الإيمان قادرين، ووجب أن يكون الله عز وجل اختص بالقدرة على الإيمان المؤمنين .

٢٠٩- مسألة أخرى :

ويقال لهم: لو كانت القدرة على الكفر قدرة على الإيمان فقد رُغِبَ إليه في القدرة على الكفر، فلما رأينا المؤمنين يرغبون إلى الله عز وجل في قدرة الإيمان،

ويزهدون في قدرة الكفر، علمنا أن الذي رغبوا فيه غير الذي زهدوا فيه .

٢١٠- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أخبرونا عن قوة الإيمان أليست فضلاً من الله عز وجل؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فالتفضل أليس هو ما للمتفضل أن لا يتفضل به، وله أن يتفضل به؟ فلا بد من الإجابة إلى ذلك بنعم؛ لأن ذلك هو الفرق بين الفضل وبين الاستحقاق .

ويقال لهم: وللمتفضل إذا أمر بالإيمان أن يرفع التفضل ولا يتفضل به فيأمرهم بالإيمان، وإن خذلهم لم يعطهم قدرة الإيمان، وهذا هو قولنا ومذهبنا .

٢١١- مسألة :

ويقال لهم: هل يقدر الله على توفيق يوفق به الكافرين حتى يكونوا مؤمنين؟

فإن قالوا: لا. نطقوا بتعجيز الله عز وجل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وإن قالوا: نعم يقدر على ذلك، ولو فعل بهم التوفيق لآمنوا، تركوا قولهم، وقالوا بالحق .

٢١٢- مسألة :

وإن سألوا عن قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٣١] وعن قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨] .

قيل لهم: معنى ذلك أنه لا يريد أن يظلمهم؛ لأنه قال: وما الله يريد ظلماً لهم، ولم يقل: لا يريد ظلم بعضهم لبعض، فلم يرد أن يظلمهم وإن

كان أراد ظلم بعضهم لبعض، أي: فلم يرد أن يظلمهم وإن كان أراد أن يتظالموا .

٢١٣- مسألة :

وإن سألوا عن قول الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك:٣] قالوا: والكفر متفاوت فكيف يكون من خلق الله؟

والجواب عن ذلك أنه عز وجل قال: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤] فإنما عنى ما ترى في السموات من فطور؛ لأنه ذكر خلق السموات ولم يذكر الكفر، وإذا كان هذا على ما قلناه بطل ما قالوه، والحمد لله رب العالمين .

٢١٤- جواب :

ويقال لهم: هل تعرفون لله عز وجل نعمة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه خُصَّ بها دون أبي جهل ابتداءً؟

فإن قالوا: لا ، فَحُشَ قولُهم .

وإن قالوا: نعم، تركوا مذهبهم، لأنهم لا يقولون: إن الله خص المؤمنين في الابتداء بما لم يخص به الكافرين .

٢١٥- مسألة :

وإن سألوا عن قول الله عز وجل:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ص:٢٧] فقالوا: هذه الآية تدل على أن الله عز وجل لم يخلق الباطل.

والجواب عن ذلك: أن الله عز وجل أراد تكذيب المشركين الذين قالوا: لا حشر ولا نشور ولا إعادة، فقال تعالى: ما خلقت ذلك، وأنا لا أثيب

من أطاعني، ولا أعاقب من عصاني، كما ظن الكافرون أنه لا حشر ولا نشور ولا ثواب ولا عقاب، ألا تراه قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧] . وبيّن ذلك بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] أي: لا نسوّي بينهم في أن نفنيهم أجمعين ونعيدهم فيكون سبيلهم سبيلاً واحداً .

٢١٦- مسألة :

وإن سألوا عن قول الله عز وجل: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء:٧٩] .

والجواب عن ذلك: أن الله عز وجل قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني الخصب والخير، ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني الجدب والقحط والمصائب، ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾أي لشؤمك، قال الله تعالى: يا محمد ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] في قولهم: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فحذف قولهم؛ لأن ما تقدم من الكلام يدل عليه؛ لأن القرآن لا يتناقض، ولا يجوز أن يقول في آية إن الكل من عند الله، ثم يقول في الآية الأخرى التي تليها إن الكل ليس من عند الله، على أن ما أصاب الناس هو غير ما أصابوه، وهذا يبين بطلان تعلقهم بهذه الآية، ويوجب عليهم الحجة .

٢١٧- مسألة :

وإن سألوا عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] .

فالجواب عن ذلك: أن الله عز وجل إنما عنى المؤمنين دون الكافرين؛ لأنه أخبرنا أنه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه، فالذين خلقهم لجهنم وأحصاهم وعدَّهم وكتبهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء أمهاتهم غير الذين خلقهم لعبادته .

٢١٨- مسألة في التكليف :

ويقال لهم: أليس قد كلف الله عز وجل الكافرين أن يستمعوا الحق ويقبلوه ويؤمنوا بالله؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فقد قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ [هود:٢٠] وقال: ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف:١٠١] وقد كلفهم استماع الحق .

٢١٩- جواب :

ويقال لهم: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم:٤٢] أليس قد أمرهم الله عز وجل بالسجود في الآخرة؟ وجاء في الخبر: « أن المنافقين يجعل في أصلابهم كالصفائح فلا يستطيعون السجود»[1]، وفي هذا تثبيت لما نقوله من أنه لا يجب لهم على الله عز وجل إذا أمرهم أن يقدرهم، وهو بطلان قول القدرية .

٢٢٠- مسألة في إيلام الأطفال :

ويقال لهم: أليس قد آلم الله عز وجل الأطفال في الدنيا بآلام أوصلها إليهم؟ كنحو الجذام الذي يقطع أيديهم وأرجلهم، وغير ذلك مما يؤلمهم

---

(١) أخرج البخاري رقم (٤٩١٩) في التفسير: باب ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً » .

به، وكان ذلك سائغاً جائزاً. فإذا قالوا: نعم .

قيل لهم: فإذا كان هذا عدلاً فما أنكرتم أن يؤلمهم في الآخرة، ويكون ذلك منه عدلاً .

فإن قالوا: آلمهم في الدنيا ليعتبر بهم الآباء .

قيل لهم: فإذا فعل بهم ذلك في الدنيا ليعتبر بهم الآباء، وكان ذلك منه عدلاً فلم لا يؤلم أطفال الكافرين في الآخرة ليغيظ بذلك آباءهم، ويكون ذلك منه عدلاً؟

وقد قيل في الخبر: « إنَّ أَطْفَالَ المُشْرِكِينَ تُؤَجَّجُ لَهُمْ نَارٌ يَوْمَ القِيامَة، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: اقْتَحِمُوهَا، فَمَنْ اقْتَحَمَهَا أَدْخَلَهُ الجنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَقْتَحِمْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ»[1].

وقد قيل في الأطفال، وروي عن النبي ﷺ: « إِنْ شِئْتِ أَسْمَعْتُكِ ضَغَاءَهُم في النَّارِ»[2].

٢٢١- جواب :

ويقال لهم: أليس قد قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:١-٣] وأمره مع ذلك بالإيمان، فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون ولا يقدر القادر على أن يؤمن، وأن يعلم أنه لا يؤمن، وإذا كان هذا هكذا، فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه؛ لأنه أمره أن يؤمن، وأنه يعلم أنه لا يؤمن .

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند» ٦/٢٠٨ بلفظ: « أسمعتك تضاغيهم في النار » وفي سنده أبو عقيل مولى بهية وهو ضعيف وبهية مجهولة، والصحيح أن أطفال المشركين خدم أهل الجنة كما ورد في الحديث الصحيح. انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٤٦٨) .

٢٢٢- مسألة :

ويقال لهم: أليس أَمَرَ الله عز وجل بالإيمان من علم أنه لا يؤمن؟

فمن قولهم: نعم، يقال لهم: فأنتم قادرون على الإيمان، ويتأتى لكم ذلك .

وإن قالوا: لا ، وافقوا. وإن قالوا: نعم، زعموا أن العباد يقدرون على الخروج من علم الله، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً .

٢٢٣- الرد على المعتزلة :

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمة الله عليه:

ويقال لهم: أليس المجوس أثبتوا أن الشيطان يقدر على الشر الذي لا يقدر الله عز وجل عليه، فكانوا بقولهم هذا كافرين ؟

فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فإذا زعمتم أن الكافرين يقدرون على الكفر، والله عز وجل لا يقدر عليه، فقد زدتم على المجوس في قولكم[١]؛ لأنكم تقولون معهم: إن الشيطان يقدر على الشر والله لا يقدر عليه، وهذا مما يبينه الخبر عن رسول الله ﷺ: «إنَّ القَدَرِيَةَ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[٢]، وإنما صاروا مجوس هذه الأمة لأنهم قالوا بقول المجوس .

٢٢٤- مسألة :

وزعمت القدرية أنا نستحق اسم القدر؛ لأنا نقول: إن الله عز وجل قدر الشر والكفر، فمن يثبت القدر كان قدرياً دون من لم يثبته .

---

(١) في نسخة: في قولهم .

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٩) .

فيقال لهم: القدري هو من يثبت القدر لنفسه دون ربه عز وجل، وأنه يقدر أفعاله دون خالقه، وكذلك هو في اللغة؛ لأن الصائغ هو من زعم أنه يصوغ دون من يقول إنه يصاغ له، والنجار هو من يضيف النجارة إلى نفسه دون من يزعم[1] أنه ينجر له، فلما كنتم تزعمون أنكم تقدرون أعمالكم وتفعلونها دون ربكم وجب أن تكونوا قدرية.

ولم نكن نحن قدرية؛ لأنا لم نضف الأعمال إلى أنفسنا دون ربنا عز وجل، ولم نقل: إنا نقدرها دونه، وقلنا: إنها تقدر لنا.

٢٢٥- جواب:

ويقال لهم: إذا كان من أثبت التقدير لله عز وجل قدرياً، فيلزمكم إذا زعمتم أن الله عز وجل قدر السموات والأرض وقدر الطاعات أن تكونوا قدرية، فإذا لم يلزم هذا فقد بطل قولكم وانتقض كلامكم.

٢٢٦- مسألة في الختم:

يقال لهم: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧] وقال عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥] فخبّرونا عن الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، أتزعمون أنه هداهم وشرح للإسلام صدورهم وأضلهم؟

فإن قالوا: نعم، تناقض قولهم.

وقيل لهم: كيف تكون الصدور مشروحة للإيمان، وهي ضيقة حرجة مختوم عليها، وكيف يجمع القفل الذي قال الله عز وجل: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]

(١) في نسخة: يقول.

مع الشرح، والضيق مع السعة، والهدى مع الضلال؟ إن كان هذا جائزاً، جَاز أن يجتمع التوحيد والإلحاد الذي هو ضد التوحيد، والكفر والإيمان معاً في قلب واحد، وإن لم يجز هذا لم يجز ما قلتموه.

فإن قالوا: الختم والضيق والضلال لا يجوز أن يجتمع مع شرح الله الصدر.

قيل لهم: وكذلك الهدى لا يجتمع مع الضلال، وإذا كان هكذا فما شرح الله صدور الكافرين للإيمان، بل ختم الله على قلوبهم، وأقفلها عن الحق، وشد عليها، كما دعا نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام على قومه، فقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]، وقال الله عز وجل: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩] وقال عز وجل يخبر عن الكافرين أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] فإذا خلق الله الأكنة في قلوبهم والقفل والزيغ[1] والختمَ وضيقَ الصدر، ثم أمرهم بالإيمان الذي عَلِمَ أنه لا يكون، فقد أمرهم بما لا يقدرون عليه، وإذا خلق الله في قلوبهم ما ذكرناه من الضيق عن الإيمان، فهل الضيق عن الإيمان إلا الكفر الذي في قلوبهم، وهذا يبين أن الله خلق كفرهم ومعاصيهم.

٢٢٧- جواب:

ويقال لهم: قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤]، وقال تعالى يخبر عن

---

(١) جاء في الأصول بعد قوله: الزيغ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، والآية مقحمة في السياق كما لا يخفى، والله أعلم.

يوسف صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] فحدِّثونا عن ذلك التثبيت والبرهان، هل فعله الله عز وجل بالكافرين، أو ما هو مثله؟

فإن قالوا: لا، تركوا القول بالقدر.

وإن قالوا: نعم.

قيل لهم: فإذا كان لم يركن إليهم من أجل التثبيت فيجب لو كان فعل ذلك بالكافرين أن لا[1] يثبتوا عن الكفر، وإذا لم يكونوا عن الكفر مفترقين فقد بطل أن يكون فعل بهم مثل ما فعله بالنبي صلى الله عليه وسلم من التثبيت الذي لما فعله به لم يركن إلى الكافرين.

٢٢٨- مسألة في الاستثناء:

ويقال لهم: خبرونا عن مطالبة رجل بحق، فقال له: والله لأعطينك ذلك غداً إن شاء الله تعالى، أليس الله شائياً أن يعطيه حقه؟

فإن قالوا: نعم.

يقال لهم: أفرأيتم إن جاء الغد فلم يعطه حقه، أليس لا يحنث[2]؟ فلا بد من نعم.

فيقال لهم: فلو كان الله شاء أن يعطيه حقه لحنث إذا لم يعطه، كما لو قال: والله لأعطينك حقك إذا طلع الفجر غداً، ثم طلع ولم يعطه يكون حانثاً.

---

(١) ساقطة من بعض النسخ.

(٢) بل يحنث، لأن قوله: «إن شاء الله تعالى» قاله تحقيقاً لا تعليقاً، وإلا فما فائدة القسم.

٢٢٩- مسألة في الآجال :

يقال لهم: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف:٣٤] وقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[المنافقون : ١١] ؟ فلا بد من نعم .

يقال لهم: فخبرونا عمن قَتَله قاتلٌ ظُلماً، أتزعمون أنه قُتل في أجله أو بغير أجله؟

فإن قالوا: نعم، وافقوا وقالوا بالحق، وتركوا القدر .

وإن قالوا: لا .

قيل لهم: فمتى أجل هذا المقتول؟

فإن قالوا: الوقت الذي علم الله أنه لو لم يقتل لتزوج امرأة علم أنها امرأته، وإن لم يبلغ إلى أن يتزوجها، وإذا كان في معلوم الله أنه لو لم يقتل وبقي لكفر أن تكون النار داره، وإذا لم يجز هذا لم يجز أن يكون الوقت الذي لم يبلغ إليه أجلاً له، على أن هذا القول لا مقيد لقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤] .

٢٣٠- مسألة أخرى :

ويقال لهم: إذا كان القاتل عندكم قادراً على أن لا يقتل هذا المقتول، فيعيش، فهو قادر على قطع أجله وتقديمه قبل أجله، وهو قادر على تأخيره إلى أجله، فالإنسان على قولكم يقدر أن يقدم آجال العباد ويؤخرها، ويقدر أن يبقي العباد ويبلغهم ويخرج أرواحهم، وهذا إلحاد في الدين .

٢٣١- مسألة في الأرزاق :

ويقال لهم: خبرونا عمن اغتصب طعاماً فأكله حراماً، هل رزقه الله ذلك الحرام؟

فإن قالوا: نعم، تركوا القدر .

وإن قالوا: لا .

قيل لهم: فمن أكل جميع عمره الحرام، فما رزقه الله شيئاً اغتذى به جسمه .

ويقال لهم: فإذا كان غيره يغتصب له ذلك الطعام، ويطعمه إياه إلى أن مات، فرازق هذا الإنسان عندكم غير الله، وفي هذا إقرار منهم أن للخلق رازِقَيْن :

أحدهما يرزق الحلال، والآخر يرزق الحرام، وأن الناس تنبت لحومهم وتشد عظامهم، والله غير رازق لهم ما اغتذوا به .

وإذا قلتم: إن الله لم يرزقه الحرام، لزمكم أن الله لم يغذه به، ولا جعله قواماً لجسمه، وأن لحمه وجسمه قام، وعظمه اشتد بغير الله عز وجل، وهو من رزقه الحرام، وهذا كفر عظيم إن احتملوا .

٢٣٢- مسألة أخرى في الأرزاق :

ويقال لهم: لم أبيتم أن يرزق الله الحرام؟

فإن قالوا: لأنه لو رزق الحرام لمَلَّكَ الحرام.

يقال لهم: خبرونا عن الطفل الذي يتغذى من لبن أمه، وعن البهيمة التي ترعى الحشيش، من يرزقهما ذلك؟

فإن قالوا: الله .

قيل لهم: فمن مَلَّكهما؟ وهل للبهيمة مِلك؟

فإن قالوا: لا .

قيل لهم: فلم زعمتم أنه لو رزق الحرام لمَلَّكَ الحرام، وقد يرزق الله لشيء ولا يُمَلِّكُه؟

ويقال لهم: هل أقدر الله العبد على الحرام ولم يُملِّكه إياه؟

فإن قالوا: نعم. يقال لهم: فما أنكرتم أن يرزقه الحرام، وإن لم يُمَلِّكه إياه .

٢٣٣- جواب :

يقال لهم: إذا كان توفيق المؤمنين بالله، فما أنكرتم أن يكون خذلان الكافرين من قبل الله تعالى، وإلا فإن زعمتم أن الله وفق الكافرين للإيمان، فقولوا: عصمهم من الكفر، وكيف يعصمهم من الكفر وقد وقع الكفر منهم؟ فإن أثبتوا أن الله خذلهم، قيل لهم: فالخذلان من الله أليس هو الكفر الذي خلقه فيهم؟

فإن قالوا: نعم وافقوا .

وإن قالوا: لا .

قيل لهم: فما ذلك الخذلان الذي خلقه؟

فإن قالوا: تَخْلِيته إياهم والكفر .

قيل لهم: أو ليس من قولكم: إن الله عز وجل خلّى بين المؤمنين وبين الكفر؟

فمن قولهم: نعم .

قيل لهم: فإذا كان الخذلان التخلية بينهم وبين الكفر، فقد لزمكم أن يكون خذل المؤمنين؛ لأنه خلّى بينهم وبين الكفر، وهذا خروج عن الدين، فلا بد لهم أن يثبتوا لهم الخذلان للكفر الذي خلقه فيهم، فيتركوا القول بالقدر .

* * *

٢٣٤- مسألة :

إن سأل سائل مِن أهل القدر، فقال: هل يخلو العبد من أن يكون بين نعمة يجب عليه أن يشكر الله عليها، أو بلية يجب عليه الصبر عليها؟

قيل له: العبد لا يخلو من نعمة وبلية، والنعمة يجب على العبد أن يشكر الله عليها، والبلايا على ضربين :

منها ما يجب الصبر عليها كالأمراض والأسقام وما أشبه ذلك .

ومنها ما يجب عليه الإقلاع عنها كالكفر والمعاصي .

٢٣٥- مسألة :

وإن سألوا فقالوا: أيما خَيرٌ، الخيرُ أو مَنْ الخير منه؟

قيل لهم: من كان الخير متفضلاً به فهو خير من الخير .

فإن قالوا: فأيما شرٌّ، الشرُّ أو مَنِ الشرُّ منه؟

قيل لهم: من كان الشر منه جائزاً به فهو شر من الشر، والله عز وجل يكون منه الشر خَلْقاً وهو عادل به، فلذلك لا يلزمنا ما سألتم عنه على أنكم ناقضون لأصولكم؛ لأنه إن كان من كان الشر منه فهو شر من الشر، وقد خلق الله عز وجل إبليس الذي هو شر من الشر الذي يكون منه، فقد خلق ما هو شر من الشرور كلها، وهذا نقض دينكم وفساد مذهبكم .

٢٣٦- مسألة في الهدى :

يقال للمعتزلة: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢] فأخبر أن القرآن هدى للمتقين؟ فلا بد من نعم.

يقال لهم: أو ليس قد ذكر الله عز وجل القرآن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت:٤٤] فخبر أن القرآن على الكافرين عمى ؟ فلا بد من نعم .

ويقال لهم: فهل يجوز أن يكون من خبر الله عز وجل أن القرآن له هدى هو عليه عمى؟ فلا بد من لا .

فيقال لهم: فكما لا يجوز أن يكون القرآن عمى على من أخبر الله تعالى أنه له هدى، كذلك لا يجوز أن يكون القرآن هدى لمن أخبر الله أنه عليه عمى .

٢٣٧- مسألة أخرى :

ثم يقال لهم: إذا جاز أن يكون دعاء الله إلى الإيمان هدى لمن قَبِلَ ولمن لم يَقْبَل، فما أنكرتم دعاء إبليس إلى الكفر إضلالاً لمن قَبِلَ ولمن لم يَقْبَل، فإن كان دعاءُ إبليس إلى الكفر إضلالاً للكافرين الذين قبلوا عنه، دون المؤمنين الذين لم يقبلوا عنه، فما أنكرتم أن دعاء الله عز وجل إلى الإيمان هدى للمؤمنين الذين قبلوا عنه، دون الكافرين الذين لم يقبلوا عنه، وإلا فما الفرق بين ذلك؟

٢٣٨- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أليس قال الله عز وجل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾[البقرة:٢٦] فهل يدل قوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ على أنه لم يضل الكل؛ لأنه لو أراد الكل لقال: يضل به الكل، فلما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾علمنا أنه لم يضل الكل؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فما أنكرتم أن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ دليل على أنه لم يرد الكل؛ لأنه لو أراد الكل لقال: ويهدي به الكل، فلما قال﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ علمنا أنه لم يهد الكل، وفي هذا إبطال قولكم: إن الله هدى الخلق أجمعين .

٢٣٩- مسألة أخرى :

ويقال لهم: إذا قلتم: إن دعاء الله إلى الإيمان هدى للكافرين الـذين لم يقبلوا عن الله أمره، فما أنكرتم أن يكون دعاء الله إلى الإيمان نفعاً وصـلاحاً وتسديداً للكافرين الذين لم يقبلوا عن الله أمره، وما أنكرتم أن يكون عصمة لهم من الكفر، وإن لم يـوفقوا للإيمان، وفي هـذا مـا يجـب أن الله سـدد الكافرين وأصلحهم وعصمهم ووفقهم للإيمان وإن كانوا كافرين، وهذا مما لا يجوز؛ لأن الكافرين مخذولون، وكيف يكونـون مـوفقين للإيمـان وهـم مخذولون؟ فإن جاز أن يكون الكافر موفقاً للإيمان، فمـا أنكـرتم أن يكـون الإيمان له متفقاً، فإن استحال هذا فما أنكرتم أن يستحيل ما قلتموه .

٢٤٠- مسألة في الضلال :

يقال لهم: أضل الله الكافرين عن الإيمان أو عن الكفر؟

فإن قالوا: عن الكفر .

قيل لهم: فكيف يكونون ضالين عن الكفر ذاهبين عنه وهم كافرون؟

وإن قالوا: أضلهم عن الإيمان، تركوا قولهم .

وإن قالوا: نقول: إن الله أضلهم ولم يضلهم عن شيء .

قيل لهم: ما الفرق بينكم وبين من قال: إن الله هـدى المـؤمنين لا إلى شيء؟ فإن استحال أن يهدي المؤمنين لا إلى الإيمان، فما أنكـرتم مـن أنـه محال أن يضل الكافرين لا عن الإيمان .

٢٤١- مسألة أخرى :

ويقال لهم: مـا معـنى قـول الله عـز وجـل: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧] ؟ فـإن قـالوا: معـنى ذلـك أنـه يـسميهم ضـالين، ويحكـم علـيهم بالضلال .

قيل لهم: أليس خاطب الله العرب بلغتهم فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]؟ فلا بد: من نعم .

فيقال لهم: فإذا كان الله عز وجل أنزل القرآن بلسان العرب، فمن أين وجدتم في لغة العرب أن يقال: أضل فلان فلاناً، أي سماه ضالاً؟

فإن قالوا: وجدنا القائل يقول: إذا قال رجل لرجل: ضالٌّ: قد ضللته .

قيل لهم: قد وجدنا العرب يقولون: ضلل فلان فلاناً إذا سماه ضالاً، ولم نجدهم يقولون: أضل فلان فلاناً بهذا المعنى، فلما قال الله عز وجل: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لم يجز أن يكون ذلك معنى الاسم، والحكم إذا لم يجز في لغة العرب أن يقال: أضل فلان فلاناً، إذا سماه ضالاً، بطل تأويلكم إذا كان خلاف لسان العرب

٢٤٢- مسألة أخرى :

ويقال لهم: إذا قلتم: إن الله أضل الكافرين بأن سماهم ضالين، وليس ذلك في اللغة على ما ادعيتموه، فيلزمكم إذا سمى النبي ﷺ قوماً ضالين فاسدين بأن يكون قد أضلهم وأفسدهم بأن سماهم ضالين فاسدين، وإذا لم يجز هذا بطل أن يكون معنى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الاسم والحكم كما ادعيتم .

٢٤٣- مسألة أخرى :

ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا﴾ [الكهف:١٧] وقال عز وجل: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمًا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَـٰنِهِمۡ﴾ [آل عمران:٨٦] فذكر أنه لا يهديهم، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥] فجعل الدعاء عاماً، والهدى خاصاً .

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤] فإذا أخبر الله عز وجل أنه لا يهدي القوم الكافرين، فكيف يجوز لقائل أن يقول إنه هدى الكافرين مع إخباره أنه لا يهديهم، ومع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص:٥٦] ومع قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٧٢] ومع قوله تعالى:﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣]؟ وإن جاز هذا جاز أن يقال: أضل المؤمنين، مع قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء:٩٧] ومع قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] فإن لم يكن ذلك، فما أنكرتم أنه لا يجوز أن يهدي الكافرين مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤] ومع سائر الآيات التي طالبناكم بها.

٢٤٤- مسألة :

ويقال لهم: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣]؟ فلا بد من نعم .

فيقال لهم: فأضلهم ليضلوا أو ليهتدوا؟

فإن قالوا: أضلهم ليهتدوا.

قيل لهم: وكيف يجوز أن يضلهم ليهتدوا، وإن جاز هذا جاز أن يهديهم ليضلوا، وإذا لم يجز أن يهدي المؤمنين ليضلوا، فما أنكرتم من أنه لا يجوز أن يضل الكافرين ليهتدوا.

٢٤٥- مسألة :

ويقال لهم: إذا زعمتم أن الله هدى الكافرين فلم يهتدوا، فما أنكرتم

أن ينفعهم فلا ينتفعون، وأنه يصلحهم فلا يصلحون، وإذا جاز أن ينفع من لا ينتفع بنفعه فما أنكرتم من أن يضر من لا تلحقه المضرة، فإن كان لا يضر إلا من يلحقه الضرر، فكذلك لا ينفع إلا منتفعاً، ولو جاز أن ينفع من ليس منتفعاً، ويهدي من ليس مهتدياً جاز أن يقدر من ليس مقتدراً، وإذا استحال ذلك استحال أن ينفع من ليس منتفعاً، ويهدي من ليس مهتدياً .

٢٤٦- مسألة يسألون عنها :

تقولون: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ [البقرة:١٨٥] فما أنكرتم أن يكون القرآن هدى للكافرين والمؤمنين .

قيل لهم: الآية خاصة؛ لأن الله عز وجل قد بين لنا أنه هُدَى للمُتقينَ، وأخبرنا أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض، فوجب أن يكون قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أراد المؤمنين دون الكافرين .

٢٤٧- سؤال :

فإن قال قائل: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [يس:١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥] وقد أنذر النبي ﷺ من اتبع الذكر ومن لم يتبع، ومن خشي ومن لم يخشَ ؟

قيل له: نعم. فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أراد به هدى لهم ولغيرهم. قيل لهم: إن معنى قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [يس:١١] إنما أراد به ينتفع بإنذارك من اتبع الذكر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥] أراد أن الإنذار ينتفع به

من يخشى الساعة، ويخاف العقوبة فيها، وإن الله عز وجل قد أخبر في موضع آخر من القرآن أنه أنذر الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] وهذا هو خبر عن الكافرين، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] وقال تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] وهذا خطاب للكافرين.

فلما أخبر الله عز وجل في آيات من القرآن أنه أنذر الكافرين، كما أخبر الله في آيات من القرآن أنه أنذر من يخشاها، وأنذر من اتبع الذكر، وجب بالقرآن أن الله قد أنذر المؤمنين والكافرين، فلما أخبرنا الله أنه هدى للمتقين وعمى على الكافرين، وأخبرنا أنه لا يهدي الكافرين، وجب أن يكون القرآن هدى للمؤمنين دون الكافرين.

٢٤٨- مسألة:

وإن سأل سائل عن قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧] فقال: أليس ثمود كانوا كافرين وقد أخبر الله أنه هداهم؟ والجواب في هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن ثمود على فريقين: كافرين ومؤمنين، وهم الذين أخبر الله أنه أنجاهم مع صالح بقوله عز وجل: ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٦٦] فالذين عنى الله عز وجل من ثمود أنه هداهم هم المؤمنون دون الكافرين؛ لأن الله عز وجل قد بيّن لنا في القرآن أنه لا يهدي الكافرين، والقرآن لا يتناقض، بل يصدق بعضه بعضاً، فإذا أخبرنا في موضع أنه لا يهدي الكافرين، ثم أخبر في موضع آخر أنه هدى ثمود، علمنا أنه إنما أراد المؤمنين من ثمود دون الكافرين.

والوجه الآخر: أن الله عز وجل عنى قوماً من ثمود كانوا مؤمنين، ثم ارتدوا، فأخبر أنه هداهم فاستحبوا بعد الهداية الكفر على الإيمان، وكانوا في حال هداهم مؤمنين.

فإن قال قائل معترضاً في الجواب الأول: كيف يجوز أن يقول: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ويعني المؤمنين من ثمود، ويقول: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾ يعني الكافرين منهم وهم غير مؤمنين؟

يقال له: هذا جائز في اللغة التي ورد بها القرآن أن يقول: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ويعني المؤمنين من ثمود، ويقال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾ يعني الكافرين منهم، وقد ورد القرآن بمثل هذا، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] يعني الكافرين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] يعني المؤمنين، ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤] يعني الكافرين، ولا خلاف عند أهل اللغة في جواز الخطاب بهذا أن يكون ظاهره لجنس، والمراد به جنسان، فبطل ما اعترض به المعترض، ودل على جهله.

* * *

الباب الثاني عشر

ذكر الروايات في القدر

٢٥٠- روى معاوية بن عمرو، قال: حدثنا زائدة قال: حدثنا سليمان الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، قال: أَخْبَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ -: « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكاً، قال: فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، قَالَ: فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حتى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[1] لا حرمنا الله منها[2].

٢٥١- وروى معاوية بن عمرو قال: حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، قَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ الله بِيَدِه وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجنَّةِ، قَالَ: فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى

---

(١) البخاري رقم (٣٢٠٨) في بدء الخلق: باب ذكر الملائكة، ورقم (٣٣٣٢) في الأنبياء: باب خلق آدم وذريته، ورقم (٦٥٩٤) في القدر: باب في القدر، ورقم (٧٤٥٤) في التوحيد: باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر: باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

(٢) انظر ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى في « تحفة المودود » ص(١٥٤-١٥٧). طبعتنا.

الَّذي اصْطَفَاكَ الله بِكَلِمَاتِه، تَلُومُنِي عَلَى عَمَلٍ كَتَبَهُ الله عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الله السَّموات، قَالَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »[1].

وروى حديث « حَجَّ آدَمُ مُوسَى »: مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ[2].

وهذا يدل على بطلان قول القدرية الذين يقولون: إن الله عز وجل لا يعلم الشيء حتى يكون؛ لأن الله عز وجل إذا كتب ذلك وأمر بأن يُكْتب فلا يَكْتُبُ شيئاً لا يعلمه، جلَّ عن ذلك وتقدس. وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦] وقال: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] وقال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:٩٤] وقال: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] وقال: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] فذلك يبين أنه يعلم الأشياء كلها.

وقد أخبر الله عز وجل أن الخلق يبعثون ويحشرون، وأن الكافرين في النار يخلدون، وأن الأنبياء والمؤمنين في الجنان يخلدون[3]، وأن القيامة تقوم ولم تقم القيامة بعد، فذلك يدل على أن الله تعالى يعلم ما يكون قبل

---

(١) البخاري (٣٤٠٩) في الأنبياء: باب وفاة موسى وذكره بعد، ورقم (٤٧٣٦) في التفسير: باب ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، ورقم (٤٧٣٨) باب ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، ورقم(٦٦١٤) في القدر: باب تحاج آدم وموسى، ورقم (٧٥١٥) في التوحيد: باب ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. ومسلم رقم (٢٦٥٢) في القدر: باب حجاج آدم وموسى. انظر روايات الحديث في « جامع الأصول » رقم(٧٥٩٨).

(٢) رواه مالك ٨٩٨/٢ في القدر: باب النهي عن القول بالقدر، وإسناده صحيح.

(٣) في نسخة: يدخلون.

أن يكون، وقد قـال الله في أهـل النـار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] فأخبر عما لا يكون أن لو كان كيف يكون.

وقــال تعــالى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] ومن لا يعلم الشيء قبل كونه لا يعلم بعد تقضيه، تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً.

٢٥١- وروى معاوية بن عمرو، قال: حدثنا زائدة، عن سليمان الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله ابن ربيعة، قال: كنا عند عبد الله، قال: فذكروا رجلاً فذكروا من خُلُقِه، فقال القوم: أما له من يأخذ على يديه؟ قال عبد الله: أرأيتم لو قطع رأسه كنتم تستطيعون أن تجعلوا له يداً؟ قالوا: لا.

قال عبد الله: إنَّ النُّطْفَةَ إذا وَقَعَتْ في الْمَرْأَة مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ انْحَدَرَتْ دَماً، ثُمَّ تكونُ عَلَقَةً مثْلَ ذَلكَ، ثُمَّ تَكُونُ مُضْغَةً مثْلَ ذَلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكاً فيَقُولُ: اكتُبْ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَرزْقَهُ وَأَثَرَهُ وَخُلُقَهُ وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُغَيِّرُوا خُلُقَهُ حتى تُغَيِّرُوا خَلْقَهُ[1].

٢٥٢- وروى معاوية بن عمرو، قال: حدثنا زائدة، عن منصور، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن علي ﷺ، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقعد ونحن حوله، ومعه مخصرة له فنكت بها ورفع رأسه، فقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا قَدْ كُتبَ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٨٨٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٣)، وهو حسن الإسناد، لكن قوله: «إن النطفة إذا وقعت ...» في حكم المرفوع، وقد صح مرفوعاً.

وَالنَّارِ، وَإلا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سَعِيْدَةً». فقال رجل من القوم: يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة يصير إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إلى الشقاوة، فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَمُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ، وأَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَمُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠](١).

٢٥٣- وروى موسى بن إسماعيل قال: حدثنا حماد، قال: أنا هشام ابن عروة، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وإِنَّهُ مَكْتُوبٌ في الْكِتَابِ مِن أَهْلِ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ قَبلَ مَوْتِه تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ في الْكِتَابِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فإِذَا كَانَ قَبلَ مَوْتِه تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمَاتَ فَدَخَلَ الجنَّةَ»(٢).

وهذه الأحاديث تدل على أن الله عز وجل علم ما يكون أنه يكون وكتبه، وأنه قد كتب أهل الجنة وأهل النار، وخلقهم فريقين: فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، وبذلك نطق كتابه العزيز إذ يقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠] وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] فخلق الله

---

(١) البخاري رقم (١٣٦٢) في الجنائز :باب موعظة المحدث عند القبر، ورقم (٤٩٤٥-٤٩٤٩) و(٦٧١٢) و(٦٦٠٥) و(٧٥٥٢)، ومسلم رقم (٢٦٤٧) في القدر: باب كيفية الخلق .

(٢) قال الهيثمي في « المجمع »٧/٢١١-٢١٢: رواه أحمد [٦/١٠٧-١٠٨]، وأبو يعلى [(٤٦٦٨)]، وبعض أسانيدهما رجاله رجال الصحيح .

الأشـــقياء للــشقاء، والــسعداء للــسعادة، وقــال عــز وجـــل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

٢٥٤- وروي عن النبي ﷺ: « أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ للجَنَّةِ أهْلاً ولِلنَّارِ أهْلاً »[1] أعاذنا الله منها .

٢٥٥- دليل في القدر :

ومما يدل على بطلان قول القدرية قـول الله تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] .

وقد جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ: « أنَّ الله عَزَّ وَجَـلَّ مَـسَحَ ظَهْـرَ آدَمَ فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ ظَهْرِهِ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ، ثُـمَّ قَـرَّرَهُمْ بِوحدَانِيَـتِهِ، وَأَقَـامَ الحُجَّةَ عَليهِم »[2]؛ لأنه قـال تعـالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قــال الله عـــز وجـــل: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] فجعل تقريرهم بوحدانيته لما أخرجهم من ظهر آدم حجة عليهم إذا أنكروا في الدنيا ما كانوا عرفوه في الذر الأول، ثم من بعد الإقرار جحدوه.

٢٥٦- وروي عن الـنبي ﷺ أنـه قـال: « إنَّ الله قَـبَضَ قَبْـضَةً للجَنَّـة، وقَبَضَ قَبْضَةً لِلنَّارِ، ميَّـزَ بَعْضاً مِنْ بَعْضٍ، فَغَلَبَتْ الشِّقْوَةُ عَلَى أَهْلِ الشِّقْوَةِ،

(١) مسلم رقم (٢٦٦٢) في القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكـم مـوت أطفـال الكفار وأطفال المسلمين، من حديث عائشة رضي الله عنها. سيأتي لفظه ص(١٦٠) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » ٨٩٨/٢، وأبـو داود (٤٧٠٤)، والترمـذي رقـم (٣٠٧٧)، والحـاكم ٢٧/١، من حديث مسلم بن يسار عن عمر بن الخطاب ﷺ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ﷺ فهو منقطع، وله شاهد من حديث ابن عباس رضـي الله عنـهما بمعنـاه عنـد أحمـد ٢٧/١، والحاكم ٢٧/١ و٢٨ وصححه ووافقه الذهبي، ورجح ابن كثير رحمه الله في « تفسيره » حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه موقوف عليـه، وانظـر « تفـسيره » ٢٦١/٢-٢٦٤. والحـديث في « الأحاديث الضعيفة » (٣٠٧١) .

والسَّعَادَةِ عَلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ » .

قال الله عز وجل مخبراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦] وكل ذلك بأمر قد سبق في علم الله عز وجل، ونفذت فيه إرادته، وتقدمت فيه مشيئته.

٢٥٧- وروى معاوية بن عمرو قال: حدثنا زائدة، قال: حدثنا طلحة بن يحيى القرشي، قال: حدثتني عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ دُعِيَ إلى جنازة غلام من الأنصار ليصلي عليه، فقالت عائشة: طوبى لهذا يا رسول الله! عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدركه، قال: « أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِلجَنَّةِ أَهْلاً وَهُمْ في أَصْلابِ آبَائِهِم، وَلِلنَّارِ أَهْلاً جَعَلَهُم لَها وَهُمْ في أَصْلابِ آبَائِهِم»[1] وهذا يبين أن السعادة قد سبقت لأهلها، والشقاء قد سبق لأهله. وقال النبي ﷺ: « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »[2].

٢٥٨- دليل آخر :

وقد قال الله عز وجل: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧] وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] فأخبر تعالى أنه يضل ويهدي، وقال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] فأخبرنا أنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦] وإذا كان الكفر مما أراده فقد فعله وقدره وأحدثه وأنشأه واخترعه، وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (١٥٩) .

(٢)تقدم تخريجه ص (١٥٨) .

فلو كانت عبادتهم للأصنام من أعمالهم كان ذلك مخلوقاً لله، وقد قال الله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤] يريد أنه تعالى يجازيهم على أعمالهم، كذلك إذا ذكر عبادتهم للأصنام وكفرهم بالرحمن، ولو كان مما قدروه وفعلوه لأنفسهم لكانوا قد فعلوا وقدروا ما خرج عن تقدير ربهم وفعله، وكيف يجوز أن يكون لهم من التقدير والفعل والقدرة ما ليس لربهم؟ فمن زعم ذلك فقد عَجَّز الله عز وجل، تعالى الله عن قول المعجِّزين له علواً كبيراً.

ألا ترى أن من زعم أن العباد يعلمون مالا يعلمه الله عز وجل، لكان قد أعطاهم من العلم ما لم يدخل في علم الله، وجعلهم لله نظراء، فكذلك من زعم أن العباد يفعلون وَيُقَدِّرُوْنَ مَا لَم يُقَدِّرْهُ، وَيَقْدِرُونَ على ما لم يقدر عليه، فقد جعل لهم من السلطان والقدرة والتمكن ما لم يجعله للرحمن، تعالى الله عن قول أهل الزور والبهتان والإفك والطغيان علواً كبيراً.

٢٥٩- مسألة:

ويقال لهم: هل فِعْلُ الكافِرِ الكفر فاسداً باطلاً متناقضاً؟

فإن قالوا: نعم.

قيل لهم: وكيف يفعله فاسداً متناقضاً قبيحاً، وهو يعتقده حسناً صحيحاً أفضل الأديان؟

وإذا لم يجز ذلك؛ لأن الفعل لا يكون فعلاً على حقيقته إلا ممن علمه على ما هو عليه من حقيقته، كما لا يجوز أن يكون فعلاً ممن لم يعلمه فعلاً، فقد وجب أن الله عز وجل هو الذي قدر الكفر وخلقه كفراً فاسداً باطلاً متناقضاً، خلافاً للحق والسداد.

* * *

الباب الثالث عشر

الكلام في الشفاعة والخروج من النار[1]

٢٦٠- مسألة :

ويقال لهم: قد أجمع المسلمون أن لرسول الله ﷺ شفاعة، فلمن الشفاعة أهي للمذنبين المرتكبين الكبائر، أم للمؤمنين المخلصين؟

فإن قالوا: للمذنبين المرتكبين الكبائر وافقوا.

وإن قالوا: للمؤمنين المبشّرين بالجنة الموعودين بها .

قيل لهم: فإذا كانوا بالجنة موعودين وبها مبشّرين، والله عز وجل لا يخلف وعده فما معنى الشفاعة لقوم لا يجوز عندكم أن لا يدخلهم الله جناته؟ وما معنى قولكم أنهم قد استحقوها على الله عز وجل واستوجبوها عليه سبحانه، وإذا كان الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة، كان تأخيرهم عن الجنة ظلماً، وإنما يشفع الشفعاء إلى الله عز وجل في أن لا يظلم على مذاهبكم، تعالى الله عن افتراءكم عليه علواً كبيراً .

فإن قالوا: يشفع النبي ﷺ إلى الله عز وجل في أن يزيدهم من فضله، لا في أن يدخلهم جناته .

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٢٢٣-٢٣٧) و(٤١٣-٤١٨) .

قيل لهم: أوليس قد وعدهم الله عز وجل ذلك؟ فقال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[النساء:١٧٣] والله عز وجل لا يخلف وعده، فإنما يشفع إلى الله عز وجل عندكم من أن يخلف وعده، وهذا جهل منكم[1]، وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحقه عقاباً أن يوضع عنه عقابه، أو في من لم يعده شيئاً أن يتفضل به عليه، فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقاً فلا وجه لهذا .

٢٦١- مسألة :

فإن سألوا عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

فالجواب عن ذلك: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فهم يشفعون له.

وقد روي أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر[2].

وروي عن النبي ﷺ : « أن المذنبين يخرجون من النار»[3].

* * *

---

(١) في نسخة: من قولكم.

(٢) ولفظة: « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » هو حديث صحيح، رواه أبو داود رقم (٤٧٣٩) في السنة: باب الشفاعة، والترمذي رقم (٢٤٣٧) في صفة القيامة: باب رقم١٢، وأحمد في « المسند » ٣/٢١٢ من حديث أنس ﷺ. انظر « صحيح الجامع » رقم (٣٦٠٨) .

(٣) تقدم تخريجه ص (٢٣) .

الباب الرابع عشر

الكلام في الحوض[1]

٢٦٢- وأنكرت المعتزلة الحوض، وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين بلا خلاف .

وروى عن عفان، قال: حدثنا حماد بن مسلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذُكِرَ الحوض عند عبيد الله بن زياد فأنكره، فبلغ أنساً فقال: لا جرم والله لأفعلن به، قال: فأتاه، فقال: ما ذكرتم من الحوض، ما أنكرتم من الحوض، قال عبيد الله: هل سمعت النبي ﷺ يذكره؟ قال: سمعت النبي ﷺ أكثر من كذا وكذا مرة يقول: « مَا بَينَ طَرَفَيهِ - يعني الحوض - مَا بَينَ أَيْلَةَ وَمَكَّةَ، أو مَا بَينَ صَنْعَاءَ وَمَكَّةَ، وَإِنَّ آنِيَتَهُ أَكثَرَ مِنَ نُجُومِ السَّمَاءِ »[2].

وروى أحمد بن عبد الله بن يونس قال: حدثنا ابن أبي زائدة، عن عبد الملك بن عمير عن جندب بن سفيان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٢٢٠-٢٢٣) .

(٢) البخاري رقم (٦٥٨٠) في الرقاق: باب ذكر الحوض، ومسلم رقم (٢٣٠٣) في الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ، والترمذي (٢٤٤٤)، وأحمد ٣/ ٢٣٠ .

« أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ »[1] في أخبار كثيرة .

* * *

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٨٩) في الرقاق: باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ، ومسلم رقم (٢٢٨٩) في الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ .

الباب الخامس عشر

الكلام في عذاب القبر[1]

٢٦٣- وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا الله منه. وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وما روي عن أحد منهم أنه أنكره ونفاه وجحده، فوجب أن يكون إجماعاً من أصحاب النبي ﷺ .

وروى أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « تَعَوَّذُوا بالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ »[2].

وروى أحمد بن إسحاق الحضرمي، قال: حدثنا وهيب، قال: حدثنا موسى بن عقبة قال: حدثتني أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله ﷺ « يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ »[3]، أعاذنا الله منه .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لَوْلا أَنْ

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٤٥١-٤٦٣) .

(٢) مسلم رقم (٥٨٨) في المساجد ومواضع الصلاة: باب ما يستعاذ منه في الصلاة، ولفظه: « عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات ».

(٣) أحمد في « المسند » ٦/٣٦٤-٣٦٥، وهو حديث صحيح .

تَدَافَنُوا لَسَأَلتُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ مَا أَسْمَعَنِي »[1].

٢٦٤- دليل آخر :

ومما يبين عذاب الكافرين في القبور قول الله عـز وجـل: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غـافر:٤٦] فجعل عذابهم يوم تقوم الساعة بعد عرضهم على النار في الدنيا غدواً وعشياً، وقال: سنعذبهم مرتين: مرة بالسيف، ومرة في قبورهم، ثم يردون إلى عذاب غليظ في الآخرة .

وأخبر الله عز وجل أن الشهداء في الدنيا يرزقون ويفرحون بفضل الله، قال عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠] وهذا لا يكون إلا في الدنيا؛ لأن الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا ولا قتلوا .

* * *

---

(١) مسلم رقم (٢٨٦٨) في الجنة وصفة نعيمها: باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، والنسائي ١٠٢/٤، وأحمد ١١٤/٣ و١٥٣ و١٧٥، وفي الباب عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عند مسلم رقم (٢٨٦٧) .

الباب السادس عشر

الكلام في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه(١)

٢٦٥- قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾[النور:٥٥]

وقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الحج:٤١] .

وأثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإسلام، وعلى أهل بيعة الرضوان، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين في مواضع كثيرة، وأثنى على أهل بيعة الرضوان، فقال عز وجل : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح:١٨] .

قد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسموه خليفة رسول الله ﷺ، وبايعوه وانقادوا له، وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التي يستحق بها الإمامة: من العلم والزهد وقوة الرأي وسياسة الأمة، وغير ذلك .

٢٦٦- دليل آخر من القرآن على إمامة الصديق رضي الله عنه :

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٥٥٢-٥٥٩) .

وقد دل الله تعالى على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سورة (براءة) فقال للقاعدين عن نصرة نبيه ﷺ والمتخلفين عن الخروج معه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة:٨٣] وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح:١٥] يعني قوله: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة:٨٣] ثم قال: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح:١٥] وقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ يعني تعرضوا عن إجابة الداعي لكم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفتح:١٦] والداعي لهم إلى ذلك غير النبي ﷺ الذي قال الله عز وجل له: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة:٨٣] وقال الله في سورة الفتح [١٥]: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ فمنعهم عن الخروج مع نبيه ﷺ وجعل خروجهم معه تبديلاً لكلامه، فوجب بذلك أن الداعي الذي يدعوهم إلى القتال داع يدعوهم بعد نبيه ﷺ، وقد قال الناس: هم أهل فارس، وقالوا: أهل اليمامة، فإن كانوا أهل اليمامة فقد قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ودعا إلى قتالهم، وإن كانوا الروم فقد قاتلهم الصديق أيضاً، وإن كانوا أهل فارس فقد قوتلوا في أيام أبي بكر رضي الله عنه، وقاتلهم عمر رضي الله عنه من بعده وفرغ منهم، وإذا وجبت إمامة عمر رضي الله عنه وجبت إمامة أبي بكر رضي الله عنه، كما وجبت إمامة عمر رضي الله عنه؛ لأنه العاقد له الإمامة، فقد دل القرآن على إمامة الصديق والفاروق رضوان الله عليهما، وإذا وجبت إمامة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ وجب أنه أفضل المسلمين رضي الله عنه.

٢٦٧- دليل آخر للإجماع على إمامة أبي بكر رضي الله عنه :

ومما يدل على إمامة الصديق ﷺ أن المسلمين جميعاً بـايعوه وانقـادوا لإمامته، وقالوا له: يا خليفة رسول الله ﷺ، ورأينا علياً والعباس رضـي الله عنهما بايعاه ﷺ، وأقرا له بالإمامة .

وإذا كانت الرافضة يقولون: إن علياً ﷺ هو المنصوص علـى إمامتـه، والراوندية تقول: العباس هو المنصوص على إمامته .

ولم يكن للناس في الإمامة إلا ثلاثة أقوال :

من قال منهم: إن النبي ﷺ نص على إمامة الصديق ﷺ، وهـو الإمـام بعد الرسول ﷺ، وقول من قال: نص على إمامة علي ﷺ، وقول من قـال: الإمام بعده العباس رضي الله عنه[١] .

وقول من قال: هو أبو بكر الصديق ﷺ هو بإجماع المسلمين والشهادة له بذلك، ثم رأينا علياً والعباس رضي الله عنـهما قـد بايعـاه وأجمعـا علـى إمامته، فوجب أن يكون إماماً بعد النبي ﷺ بإجماع المسلمين .

ولا يجوز لقائل أن يقول: كان باطن علـيٍّ والعبـاس رضـي الله عنـهما خلاف ظاهرهما، ولو جاز هذا لمدِّعيه لم يـصح إجمـاع، وجـاز لقائـل أن يقول ذلك في كل إجماع للمسلمين، وهذا يسقط حجـة الإجمـاع؛ لأن الله عز وجل لم يتعبَّدنا في الإجماع بباطن الناس، وإنما تعبَّدنا بظـاهرهم، وإذا كان كذلك فقد حصل الإجماع والاتفاق على إمامة أبي بكر الصديق .

٢٦٨- وإذا ثبتـت إمامـة الـصديق ﷺ ثبتـت إمامـة الفـاروق[٢] ﷺ؛

---

(١) في نسخة: نص على إمامة العباس .

(٢) انظر « شرح الطحاوية » ص(٥٦٠-٥٦١) .

لأن الصديق رضي الله عنه نص عليه وعقد له الإمامة، واختاره لها، وكان أفضلهم بعد أبي بكر رضي الله عنهما .

٢٦٩- وثبتت إمامة عثمان[1] ﷺ بعد عمر ﷺ بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر ﷺ، فاختاروه ورضوا بإمامته، وأجمعوا على فضله وعدله .

---

(١) انظر «شرح الطحاوية» ص(٥٦١-٥٦٦) .

قال الإمام الأكبر محمد الخضر حسين شيخ الأزهر تحت عنوان : كيف نشأت الفتنة؟

قضى عثمان ﷺ معظم أيام خلافته والناس مجمعون على حبه والاغتباط بإمارته، لشدة رأفته وواسع حلمه ولين جانبه، ولأن أيدي الناس امتلأت في عهده من المغانم، وصاروا يتمتعون بالعيش الطيّب أكثر مما كانوا يتمتعون .

كان بعد هذا أن دخل في الإسلام نفر غير مخلصين في إسلامهم، وإنما يريدون الكيد له، وتفريق كلمة أهله، من هؤلاء عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء. وهو من يهود حمير، نزل البصرة على حكيم بن جبلة العبدي، وابتدأ يبث في السر أن علياً أحقّ في الخلافة، ويدعو إلى نزع الخلافة من عثمان، فتعلق بدعوته نفر، وبلغ أمره عبد الله بن عامر البصرة، فطرده، وجاء الكوفة فأخرج منها، ثم جاء الشام فأخرج منها كذلك، فأتى مصر واتصل به نفر من أوشاب الناس، منهم كنانة بن بشر وخالد بن ملجم، وأخذ يردد عليهم أن علياً وصي النبي ﷺ، وأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وبعث من هؤلاء دعاة في البلاد التي كان قد طرد منها، واتفق أن كان لعثمان عمّال من ذوي قرابته، وهناك أناس قد يلاقون من هؤلاء العمال ما لا يوافق أهواءهم، فيطعنون فيهم، ويتخذون من قرابتهم لعثمان وسيلة إلى الطعن في عثمان، فوجد فريقاً يوافقون أصحاب تلك الدعاية السرية في الطعن في عثمان نفسه، وإن كان الفريقان يختلفان في الباعث على هذا الطعن، فأصحاب تلك الدعاية السرية يريدون تفريق كلمة المسلمين أو إفساد دينهم، والفريق الثاني إنما يريد نقل الخلافة من عثمان إلى غيره، كراهة لبعض عماله أو رجاء أن يجد في خلافة غيره ولاية أو غنيمة .

وتكّون من الفريقين جمع يتمضمضون بالطعن في عمال عثمان، ويتعدون بالطعن إلى عثمان نفسه، ينسبون إليه أشياء زوراً، ويذكرون بعض أعماله على غير وجهها الصحيح، وكان عثمان يقابل زعماء هذه الدعاية باللين، ولا يزيد على أن يدفعهم بالحجة.

كان جماعة من أهل الكوفة قد أظهروا العداء لعثمان، فأبلغ سعيد بن العاص عثمان خبرهم =

....

= فكتب إليه بإرسالهم إلى معاوية، وكتب إلى معاوية: إن نفراً خلقوا للفتنة، فقم عليهم، وانههم، وإن أنست منهم رشداً فاقبل، وإن أعيوك فارددهم إليّ، فأنزلهم معاوية، وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق، ولكن معاوية بعد محادثتهم، استصغر عقولهم، واحتقر شأنهم، وكتب إلى عثمان يقول له: إنه قدم عليّ أقوام ليس لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، وإنما همهم الفتنة، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فإنه سعيداً عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير.
ومما جعل عمال عثمان يوسعون صدورهم لهؤلاء الطاعنين، ولا يبادرون إلى عقوبتهم الزاجرة، أنهم كانوا يتظاهرون في طعنهم بحال من يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
وقيام دعوة منظمة لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً، تختلق المعايب، وتلصقها بعثمان وعماله، وقد تأخذ بأذهان بعض الغافلين عن سريرة أولئك الدعاة، ويتخيلون أن الدعوة لإصلاح أمر الدولة، فيشارك هؤلاء الغافلون ذينك الفريقين في هذه الدعاية، أو يقفون في الأقل موقف الحيادة.
فلا غرابة أن تنقل كلمات في نقد سياسة عثمان عن أناس لا يريدون إفساد حال المسلمين، ولا يبتغون إدراك منفعة خاصة قد فاتتهم، وإنما يقولونها عن تأثر بتلك الدعاية المنظمة الدائبة.
وربما ذكر المؤرخون أشخاصاً معدودين من الصحابة مثل عمّار بن ياسر وعمرو بن العاص، ويقولون: إنهم كانوا يؤلبون على عثمان، ومتى صحّ أصل الرواية، فمن المحتمل أن يكون الذي صدر منهم لا يزيد على إيذاء آراء يخالفون بها رأي عثمان في بعض تصرفات الدولة أو تولية رجال يرونهم غير ذي كفاية لما تقلدوا من الأعمال، فجاء بعض ذوي الأهواء إلى هذا النقد الذي لا تخلو منه دولة، وإن بلغت من الرشد والعدل غايتهما، وسمّاه تألباً.
وقد بلغ الحال بدعاة الفتنة أن يزوّروا رسائل صدرت من عائشة وعلي وطلحة والزبير في الدعوة إلى خلع عثمان، وبلغ أمر هذه الرسائل إلى هؤلاء الصحابة الأجلاء وتبرأوا منها، وأنكروا أن تكون صدرت منهم.
وبمثل هذه الرسائل المزوّرة كانوا يخضعون الغافلين الذين لا يتثبتون فيما ينقل إليهم من الأنباء.
والظاهر أن من أسباب سريان هذه الدعاية الخبيثة، كثرة من دخلوا في الإسلام ممن لم تستنر بصائرهم بهداية الدين الحنيف حق الاستنارة، ولم يقدروا أصحاب رسول الله ﷺ حق أقدارهم، ويضاف إلى هذا ما كان عليه عثمان من النبل والحلم والحياء. ثم ما كان يجري عليه عماله من عدم مقابلة الطاعنين فيهم أو من عثمان بالشدة الزاجرة، إما استخفافاً بأمرهم وإما احتمالاً لهذه المطاعن، ولا سيما مطاعن يتظاهر أصحابها بأنهم يتظلمون، أو يريدون إقامة معروف أو إزالة منكر.

ومن تتبع سير الخلفاء الراشدين أو من جاء بعدهم من الخلفاء العاقلين، وجدهم لا يعاقبون الناس على نقد سياساتهم وإن ظهر النقد في أقوال جافية، وهذا معاوية يقول: والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحدهم إلا كلمة يشتفي بها جعلت له ذلك دبر أذني. =

....

= **كيف دُبر خلع عثمان أو قتله :**
مما لا نرتاب فيه أن ليس للصحابة ولا لأفاضل التابعين سعي في خلع عثمان، ولا دخل في قتله، وأن المؤتمرون على ذلك هم دعاة الفتنة، واستعانوا بمن تلون بدعايتهم، ونعوّل في هذا على أقوال المحدثين والمحققين من المؤرخين، قال الحافظ أبو بكر العربي في كتاب « القواصم والعواصم »: وقد سمَّوا من قام على عثمان، فوجدناهم أهل أغراض سوء، حيل بينهم وبينها، وقال: إن أحداً من الصحابة لم يشنع عليه، وقد انتدب المردة الجهلة أن يقولوا: إن كل فاضل من الصحابة كان عليه مشاغباً مؤلباً، وبما جرى عليه راضياً، واخترعوا كتباً فيها فصاحة وأمثال، وادعوا أن عثمان كتب بها إلى علي، وذلك كله مصنوع، ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين.
اجتمع بعض رؤوس الفتنة بالكوفة، وأخذوا يزيدون نارها حطباً، فكتب سعيد بن العاص يشكوهم إلى عثمان، فأمره بإرسالهم إلى عبد الرحمن بن خالد عامل حمص، فوبّخهم ابن خالد وتوعدهم فهابوا سطوته، وأظهروا التوبة، وأرسل بهم إلى عثمان متظاهرين بالتوبة، فخيرهم عثمان بالبلاد التي يريدون استيطانها، فاختاروا التفرق، وذهب كل إلى البلد الذي اختاره، ولما سار كل إلى ما اختار، عادوا إلى إيقاد الفتنة وتأليب الجماعة، وتكاتبوا من أمصارهم في القدوم على المدينة، حتى جمعوا أمرهم وعزموا على خلع عثمان أو قتله، وتوجهوا نحو المدينة، متظاهرين بقصد الحج، كان على أهل البصرة حكيم بن جبلة، وعلى أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى أهل مصر عبد الرحمن بن عديس البلوي، فدخلوا المدينة في نحو أربعة آلاف شخص، فاطلع عليهم عثمان من حائط داره، ووعظهم وذكرهم، فاستشاطوا ولم تنجع فيهم الموعظة، وأراد الصحابة أن يدفعوهم عنه، فأوعز إليهم عثمان أن لا يقاتل أحد بسببه أبداً، وثبت أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان: إن معك في الدار عصابة مستبصرة، ينصر الله بأقل منها، فأذن لنا، فقال: اذكر الله رجلاً أراق لي دماً. وقال سليط بن سليط: نهانا عثمان عن قتالهم، ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا. وجاء زيد بن ثابت فقال له: إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال: لا حاجة لي في ذلك، كفوا. وروي أن عبد الله بن عامر قال: كنت مع عثمان في الدار فقال لي: اعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة إلا كفَّ يده وسلاحه، ويحدثنا القاضي أبو بكر في كتابه « العارضة » فيقول: ولقد قتل عثمان، وطالبوه أربعة آلاف، وفي المدينة أربعون ألفاً كلهم لا يريد قتله، ويريد نصره، لكنه دفع الكل، واستسلم للأمر بالعهد الذي كان عنده، ولم يرضَ أن يراق بسببه دم، ورضي أن يكون عند الله المظلوم ولا يكون عند الله الظالم.
ولما ضرب أولئك البغاة على عثمان الحصر، كان معه وعلى بابه جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة يحرسونه، منهم زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر والحسن والحسين وعبد الله ابن الزبير ومحمد بن طلحة وعبد الله بن عامر، وربما وقعت بينهم وبين الثائرين مدافعة، حتى أصيب الحسن وغيره بجراح. =

....

= ثم إن هؤلاء الثائرين اقتحموا دار عثمان يريدون قتله.
ويذكر المؤرخون في أسماء من باشروا قتله محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن أبي بكر لم يكن من الصحابة لأنه ولد سنة حجة الوداع، وهي السنة التي انتقل عقبها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فكان أيام فتنة عثمان لم يزل في أوائل الشباب؛ على أن بعض الروايات تقول: إن محمد بن أبي بكر بعد أن دخل على عثمان كلّمه ووعظه فرجع، ثم دخل سفهاء القوم، فسفكوا دمه الطاهر وكتاب الله بين يديه، وصعدت روحه الطاهرة إلى مقام كريم.
رد ما ينسب إلى عثمان من الأحداث:
يذكر المؤرخون أشياء كان الناقمون على عثمان قد اتخذوها أسباباً لثورتهم عليه، ومن هذه الأشياء ما هو مفترى على عثمان قطعاً، ومنها لو صحّ لم يكن موضع إنكار، وإنما هو من قبيل ما يرجع إلى اجتهاد الإمام، ويقع مثله من الخلفاء الراشدين، ومنها ما يعد من حسناته وصالح أعماله.
وها نحن هؤلاء نعرض على حضراتكم ما قصّه المؤرخون وبعض المحدثين من الأمور التي طعن بها الطاعنون في عثمان، وجعلوها أسباب قيامهم عليه:
قالوا: ولى عمالاً من ذوي قرابته، وزعموا أنهم ليسوا أهلاً للولاية، وذكروا معاوية بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، ومروان بن الحكم.
ويدفع هذا بأن تعيين الولاة يرجع إلى اجتهاد الإمام، وتقوى عثمان وإخلاصه في سياسة الرعية، يجعلنا على ثقة من أنه لو ولّى بعض ذوي قرابته بعد أن عرف كفايتهم للأعمال، والمعيب أن يولي قريباً لا يكون كافياً للعمل، أو يؤثره في الولاية وهو على علم بأن غيره أكفئ منه، ثم إن معاوية ولّاه الشام عمرُ بن الخطاب، ولم يزد عثمان على أن أقرّه على الولاية، وكذلك الوليد بن عقبة كان عاملاً لعمر بن الخطاب على الجزيرة، وكان من عثمان أن ولاه الكوفة، فقدمها وسار في الناس خمس سنين سيرة حسنة، حتى اتهمه جماعة بشرب الخمر، فاستقدمه عثمان وأقام عليه الحد، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وسعيد بن العاص نشأ يتيماً في حجر عثمان، ثم انتقل إلى الشام، وأقام بها عند معاوية، فذكره عمر بن الخطاب يوماً، واستقدمه إلى المدينة وأكرمه، وكان شريف النفس سخي اليد فصيح اللسان، لا يختلف اثنان في كفايته للعمل.
وأما عبد الله بن عامر بن كريز، فكان ابن خال عثمان، وأمه أم حكيم ابنة عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، وعبد الله بن عامر هذا نشأ في الإسلام نشأة طيبة، وكان معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم، ولاه عثمان عاملاً بالبصرة عند اختلاف أهلها على أبي موسى الأشعري، وكان سن عبد الله بن عامر يومئذ خمساً وعشرين سنة فقاد الجيوش، وفتح خراسان وسجستان وكرمان، ومازال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل كسرى، وانقرضت على يده الدولة الساسانية، وكان لكرمه وحسن خلقه يحبه الناس.

=

....

= وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان عثمان استعمله على الحرب في مصر، وأبقى عمرو ابن العاص على الخراج، ثم وقع خلاف بينهما، فاستقدم عثمان عمرو بن العاص، وصارت إمارتا الخراج والحرب إلى عبد الله بن سعد .

وذكر ابن عبد البر في كتاب « الاستيعاب » سبباً آخر لعزل عمرو بن العاص، هو أن الاسكندرية انتقضت سنة (٢٥هـ) فافتتحها عمرو بن العاص، وعاملهم معاملة الناقضين للعهد، ولم يصح عند عثمان نقضهم، فعزله وولى عبد الله بن سرح، فاعتزل عمرو إلى ناحية بفلسطين، وكان يزور المدينة أحياناً .

ويدلكم على أن ولاية عبد الله بن سعد لم تقع موقع الإنكار من الصحابة، أن عثمان أمره بفتح أفريقية، فسار إليها في جيش مؤلف من كثير من الصحابة وأبناء الصحابة منهم: عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن ابن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين، وعبد الله بن عمرو بن العاص .

وقالوا: عبد الله بن سعد هذا كان أسلم ثم ارتد، وعاد إلى مكة، فنقول: عاد إلى الإسلام، وظهر إخلاصه، والتوبة تجبّ ما قبلها، قال أبو بكر بن العربي في « كتاب العارضة »: ولّى عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح لحسن سيرته وحميد طريقته، ولهذا فتح الفتوح في بحر المغرب وبره، وغزا معه جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة، أطاعوه ورضوا عنه.

وأما مروان بن الحكم: فكان له عندما توفي رسول الله ﷺ ثمان سنين، وتولى الكتابة لعثمان، وروى الحديث عن عثمان وعلي، والواقع أن مروان قد كثر الطعن فيه، ونرى بعض المحدثين يصفه بما يخفف هذا الطعن، فأبو بكر بن العربي يقول: « فمروان رجل عدل، من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين » .

وقالوا: رد الحكم إلى المدينة وقد نفاه النبي ﷺ منها إلى الطائف .

ويدفع هذا بأن النبي ﷺ قد أذن قبل وفاته لعثمان في رده، ولما أبلغ عثمان هذا الإذن أبا بكر وعمر، قالا له: إن كان معك شهيد رددناه، ولما ولي عثمان الخلافة عمل على مقتضى علمه بأن رسول الله ﷺ قد أذن في رده، وللحاكم أن يعمل على ما يعلم في غير القضاء بين الخصوم.

وقالوا: كان عمر يضرب بالدرة وهو يضرب بالسوط، وضرب عمار بن ياسر وابن مسعود ومنعه عطاءه، وضرب أبا ذر ونفاه إلى الربذة.

وسلك بعض أهل العلم في دفع هذا الإنكار طريقة أن للحاكم أن يؤدب بعض الرعايا بما يراه صلاحاً، ولكن حفاظ الحديث أنكروا هذا الذي يحكيه المؤرخون أشد الإنكار، قال أبو بكر بن العربي في « كتاب العواصم »: أما ضربه لعمار وابن مسعود ومنعه لعطاء ابن مسعود ه فزور وإفك، وقد اعتذر عن ذلك العلماءُ بوجوه لا ينبغي أن يُشتَغل بها، لأنها مبنية على باطل، ولا يُبنى حق على باطل، ولا يذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له. =

....

= وأما قصة أبي ذر، فهو أن أبا ذر كان زاهداً، وكان يعظ عمال عثمان في الزهد، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وربما أغلظ لهم القول، فشكاه معاوية إلى عثمان فاستدعاه إلى المدينة فاجتمع عليه الناس، فكره ذلك، فقال له عثمان: لو اعتزلت فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً، ونزل وراءه أجلة فضلاء.
وقالوا: صعد منبر رسول الله ﷺ وعلا على الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله ﷺ، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر.
ويدفع هذا بأن هذه الرواية غير صحيحة، قال أبو بكر بن العربي في «العواصم»: ما سمعت هذا ممن فيه تقية، وإنما هي إشاعة منكر، ليُروي ويُذكر، ليتغيّر بها قلب من يتغير.
وقالوا: لما طعن عمر رضي الله عنه، قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان بتهمة أن له يداً في قتل عمر، فلم يقم عثمان على عبيد الله بن عمر حد القصاص.
ويدفع بأن هذه الواقعة جرت بمرأى من الصحابة وهم متوافرون، فكيف تقع في أول عهد عثمان ويسكتون عنها؟ وإذا أردنا أن نرجع إلى قول المؤرخين فقد قالوا: إن الهرمزان سعى في قتل عمر وحمل الخنجر، وظهرت تحت ثيابه، وقالوا: أعطى الخنجر لأبي لؤلؤة وحرضه على عمر حتى قتله. وكان قتل عبد الله له قبل أن يتولى عثمان، ولعل عثمان كان لا يرى على عبيد الله حقاً، لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله. ويروى أن عمرو بن العاص لما اختلف الصحابة في الاقتصاص من عبيد الله بن عمر قال لعثمان: إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال عثمان: أنا وليّهم وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي، وانتهى الخلاف.
وقالوا: ابتدع في جمع المصحف وحرق المصاحف.
ويدفع هذا الطعن بأن الله تعالى وعد بحفظ القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فكان هذا الحفظ على يد عثمان، فإن عثمان - كما يقول ابن حزم -: جمع القرآن في مصحف تحفظ به القراءات المسموعة من النبي ﷺ، وإنما حرق المصاحف التي تشتمل على شيء يتوهمه واهم، أو يدسه زنديق.
وقالوا: خالف سنة القصر في الصلاة فصلى بالناس في منى أربع ركعات، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يصلونها ركعتين.
وجواب هذا أن تلك السنة كثر فيها الأعراب، فخشي أن يسبق إلى أذهانهم أن الصلاة اثنان، فقصد إلى تعليمهم أنها أربع. وروى البيهقي أن عثمان نفسه خطب في منى فقال: إن القصر سنة رسول الله ﷺ وصاحبيه ولكن حدث طَغَام فخفت أن يستنوا. ولعل الذي نبهه إلى هذا ما روي من أن أعرابياً ناداه في منى: يا أمير المؤمنين ما زلت أصليها منذ رأيتك عام أول ركعتين.
قال ابن العربي في «العواصم»: وأما ترك عثمان للقصر فاجتهاد، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر وفعلوه في منازلهم، فرأى أن السُّنة ربما أدت إلى إسقاط الفرض، فتركها خوف الذريعة. =

....

= ومما أنكره الثائرون على عثمان حمايته لأرض كانت للناس عامة، فخصها بإبل الصدقة، واجهوه بهذا الإنكار فقرأوا عليه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ وقالوا له: أرأيت ما حميت من الحمى، آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ فقال: هذه الآية نزلت في كذا وكذا، وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلي لإبل الصدقة، فلما زادت إبل الصدقة زدت في الحمى.

وثبت في « صحيح البخاري » أن النبي ﷺ حمى النقيع، وأن عمر بن الخطاب حمى السرف والربذة.

وزعموا أنهم لاقوا راكباً خارج المدينة يحمل كتاباً من عثمان إلى عامله بمصر عبد الله بن سعد يأمره فيه بقتل محمد بن أبي بكر ومن معه رؤوس هذه الفتنة بعد أن وعظهم وأظهروا التوبة.

ويدفع هذا بأنهم ادعوا هذا وأنكر عثمان أن يكون قد كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إما أن تقيموا شاهدين على ذلك، وإلا فيميني أني ما كتبت ولا أمرت، وقد يكتب على لسان الرجل، ويضرب على خطه، وينقش على خاتمه؟، فقالوا: تسلم إلينا مروان، فقال: لا أفعل، ولو سلمه لكان ظالماً، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان[1].

وساق الإمام البخاري في « جامعه » قصة تحتوي شيئاً مما يتلمسه الذين ينتقصون عثمان ﷺ، قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر.

قال ابن عمر: تعال أبيّن لك: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له. وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه. وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى فقال: هذه لعثمان.

وملخص هذه المحاضرة أن عثمان ﷺ لم يأتِ حدثاً منكراً، ولم يرتكب ظلماً ولا إثماً، وأن الصحابة جميعاً بريئون من دمه، وإنما حاولوا خلعه، أو خان الله في سفك دمه، نفر ليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من القوم الذين يريدون الإصلاح.

ولعل محاضرتنا هذه تنبه شبابنا النابتين نباتاً حسناً على أن يتثبتوا فيما يقصه المؤرخون عن أصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما الذي صاحبوه أعواماً، ووردت الأخبار الصحيحة أنه توفي وهو عنه راضٍ[2].

---

(١) « العواصم » لابن العربي .

(٢) مجلة الهداية الإسلامية، الجزأين السادس والسابع من المجلد الثاني عشر .

٢٧٠- وتثبت إمامة علي رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بعقد من عقدها له من الصحابة من أهل الحل والعقد، ولأنه لم يدع[١] أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد أُجْمِعَ على فضله وعدله، وأن امتناعه عن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقاً لعلمه أن ذلك ليس بوقت قيامه، ثم لما صار الأمر إليه أظهر وأعلن ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد، كما مضى من قبله من الخلفاء وأئمة العدل على السداد والرشاد متبعين لكتاب ربهم وسنة نبيهم.

هؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين[٢].

وقد روى شريح بن النعمان، قال: حدثنا حشرج بن نباتة، عن سعيد بن جمهان، قال: حدثني سَفِينَةُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «الْخِلافَةُ في أُمَّتي ثَلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذلك» ثُمَّ قَالَ لي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ خِلافَةَ أبي بَكْرٍ وَخِلافَةَ عُمَرَ وَخِلافَةَ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: أَمْسِكْ خِلافَةَ عَلِيٌّ بن أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: فَوَجَدْتُهَا ثَلاثِينَ سَنَةً[٣]. فدل ذلك على إمامة الأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين.

٢٧١- فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعلي الإمام، وكلهم من أهل

---

(١) في نسخة: يدعها.

(٢) انظر «شرح الطحاوية» ص(٥٧٠-٥٧١).

(٣) أبو داود رقم (٤٦٤٦) و(٤٦٤٧) في السنة: باب في الخلفاء، والترمذي رقم (٢٢٢٦) في الفتن: باب ما جاء في الخلافة، وأحمد في «المسند» ٥/٢٢. وصححه ابن حبان رقم (١٥٣٤) و(١٥٣٥)، والحاكم ٣/٧١ و١٤٥ ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

قال الترمذي: وفي الباب عن عمر وعلي قالا: لم يعهد النبي ﷺ في الخلافة شيئاً. انظر «جامع الأصول» رقم (٢٠٢١).

الاجتهاد. وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة، فدل على أنهم كلهم كانوا على حق في اجتهادهم[1].

٢٧٢- وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد.

٢٧٣- وكل الصحابة أئمة مأمونون غير مُتّهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبَّدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم، والتبري من كل من ينقص أحداً منهم، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد قلنا في الأبرار قولاً وخبراً، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

تم كتاب

« الإبانة عن أصول الديانة »

بعون الله الملك الوهاب، وحسن

توفيقه. والصلاة والسلام على

رسوله محمد وآله وأصحابه

أجمعين

---

(١) انظر « شرح الطحاوية » ص(٥٤٥-٥٥٢).

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

فهرس الفرق

فهرس